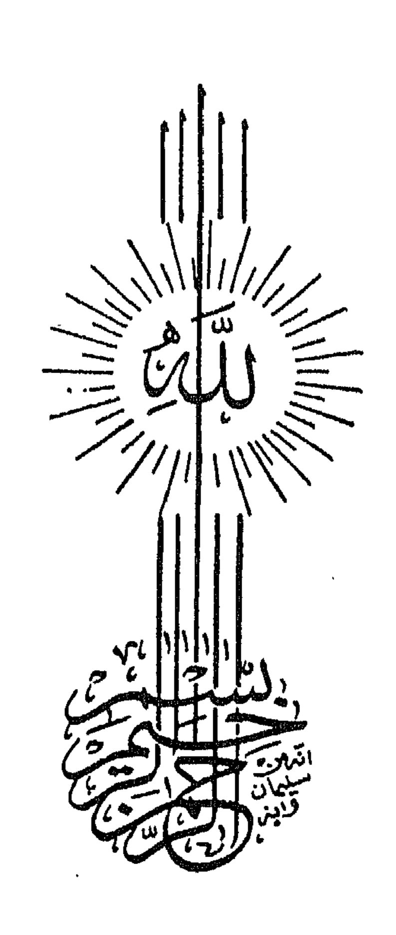
عـروبة مصـر وأقباطهـا

على طريق مشروع حضارى قومى

محمد إبراهيم المرشدى

تقديم : د. محمد عمارة

دار الشرق الأوسط للنشر


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديـــم

بقلم : د. محمد عمارة

فى الرؤية الإسلامية تصل قداسة وحدة الأمة إلى مرتبة الفريضة الدينية .. ﴿ إن هذه أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾[1] .

وهذه الوحدة فى الأمة التى هى من ثمرات التوحيد الدينى ، تبلغ فى القرآن الكريم مرتبة « الآية » من آيات الله فى الاجتماع البشرى .. ومنزلة « النعمة » العظيمة التى أنعم الله بها على عباده .. فعليها يجب أن يحافظوا ، حتى يستطيعوا شكر الذى أنعم عليهم بها .. ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾[2] .. ﴿ وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم ﴾[3] ..

وهذه الأمة ــ التى تعنى الجماعة فى مصطلع العربية ــ لم يقف نطاقها وتتوقف حدودها عند « أمة الدين » ولا « أمة العرق .. أو اللون .. أو اللسان ــ اللغة » .. فعالمية الإسلام قد جعلت « للأمة » فى مفهومه وفى حضارته : أبوابا دائمة الانفتاح ، لتكون الأمة دائمة الاستيعاب ، ومستمرة فى التحقق عبر المكان وعلى مر الزمان .. فهى قد بدأت بصاحب الدعوة ، عليه الصلاة والسلام .. وعبر العشيرة .. فالقوم .. فالقبائل والشعوب والأقوام .. وفى استيعاب لأهل الكتاب .. بل وأهل الديانات الوضعية ــ أو الإلهية التى فقدت كتبها الدينية ــ عبر هذه الدوائر والحلقات ..

---

(١) سورة الأنبياء : ٩٢ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٩٣ .

استمرت الأمة ، فى التاريخ الحضارى الإسلامى وعلى امتداد عالم الإسلام دائمة التحقق ، والانفتاح ، والاستيعاب ..

وإذا كانت أولى التطبيقات ـــ التى جسدت هذا المفهوم النظرى ـــ قد جسدها وسجلها أول دستور للدولة الإسلامية الأولى ـــ « صحيفة » دولة « المدينة » .. فإن هذا التسجيل الدستورى ، الذى وضع فى الممارسة والتطبيق ، قد أقام أمة متعددة الديانات ، وموحدة فى الرعية السياسية بجامع المواطنة التى تحقق مساواة الوحدة ووحدة المساواة .

ففى « مواد » هذه « الصحيفة » نقرأ : « المؤمنون والمسلمون : أمة واحدة من دون الناس .. ويهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. ولهم النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا مُتناصَر عليهم .. »[1] ..

فالمناصرة بين الأمة ، على تعدد الشرائع الدينية لأبنائها .. والأسوة ـــ أى المساواة ـــ بينهم جميعا : نص دستورى ، صاغه رسول الله ﷺ ، وطبقه قبل أربعة عشر قرنا فى أولى دول الإسلام ..

وعبر تاريخنا الحضارى تفردت الحضارة الإسلامية بتأليف الشعوب والقبائل والأقوام والشرائع الدينية ـــ لأهل الكتاب .. ولمن لهم « شبهة كتاب » .. بل ولأهل الديانات الوضعية ـــ فى الهند والصين وما حولهما .. تفردت الحضارة الإسلامية بهذه الخصوصية ،فى الوقت الذى ضاق فيه صدر الحضارة الغربية بالتعددية ، ليس فقط التعددية فى الديانات ، بل وحتى بالتعددية فى المذاهب داخل النصرانية ؟! ..

إن دولة الإسلام وحضارته ، منذ ولادتهما وعلى مر تاريخهما كانا عوامل توحيد وانفتاح واستيعاب للملل والنحل والأقوام ، على النحو الذى يحقق « التنوع فى إطار الوحدة » لأهل هذه الملل والنحل والأقوام .. فلم تكن معايير « الولاء » و « البراء » هى معايير التنوع فى الملل والنحل

---

(١) أنظر نص « الصحيفة » بكتابنا « الإسلام وحقوق الإنسان » ص ١٥٨ ـــ ١٦٢ طبعة القاهرة ـــ دار الشروق سنة ١٩٨٩ م .

والأقوام ، وإنما كان معيار « الـولاء » و « البراء » و « الموالاة » و « المعاداة » هو موقف أهل هذه الملل والنحل من الاختراق الأجنبى لسياج دار الإسلام ، ومن فتنة المسلمين عن دينهم .. فليست للإسلام مشكلة مع الشرائع الدينية الأخرى .. وليس للمسلمين مشكلة مع أبناء الملل والشرائع الدينية الأخرى .. وإنما المشكلة بين الأمة ــ بمللها ونحلها وأقوامها ــ وبين أعدائها ، الذين يقاتلونها فى الدين ، أو يخرجونها من الأوطان .. ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾[1] .

فوحدة الأمة ــ التى تتسع لتعدد مللها ونحلها ــ هى القاعدة .. والحضارة الإسلامية ــ الموحدة ثقافتها لمختلف الملل المكونة للأمة الواحدة ــ هى السياج الذى يميز الأمة ، حضاريا ، عن غيرها من الأمم الأخرى ذات الحضارات المغايرة .. فالتمايز فى الشرائع الدينية : « تعددية » فى إطار « وحدة الحضارة » التى تجسد وحدة الأمة الجامعة لمللها ونحلها ، التى تتساوى فى حقوق وواجبات المواطنة ، وتتناصر أمام الذين يفتنون أبناءها فى الدين أو يخرجونهم من الديار أو يظاهرون على هذا الاخراج ! ..

ذلك هو الإطار الفكرى ــ « الدينى ــ والحضارى » ــ الذى حكم ويحكم قضية الوحدة الوطنية والحضارية فى رؤية الإسلام .. والذى جسدته حقيقة واقعة حضارة الإسلام عبر تاريخنا الطويل ..

واليوم .. وفى مواجهة التكتلات الكبرى ، ذات التوجهات الحضارية المغايرة .. وأمام أهمية القوة المتغطرسة ، التى تفتح فى سياجنا الحضارى العديد من ثغرات الاختراق .. تتزايد أهمية استدعاء هذا الإطار الفكرى لقضية الوحدة الوطنية .. وللمشروع الحضارى الواحد للأمة الواحدة ..

---

(١) سورة الممتحنة : ٨ ، ٩ .

وإذاكانت مصر ـــ لأسباب كثيرة ـــ قد مثلت وتمثل العمود الفقرى للمشروع العربى .. الذى يمثل العمود الفقرى للمشروع الإسلامى .. فإن وحدتها الوطنية ـــ فى زمن التكتلات وعصر الاختراقات ـــ هى طوق النجاة لجماعتها الوطنية ، ولأمتها القومية ولأبناء الشرق الإسلامى أجمعين ..

وفى هذا الإطار تأتى أهمية هذه الدراسة الجادة ، المتميزة بالحس الحضارى الناضج ، والتوجه الموضوعى لـ « عروبة مصر وأقباطها على طريق مشروع حضارى قومى » .. والتى نرجو أن تثمر الثمرة الطيبة للكلمة الطيبة إن شاء الله ...

دكتـــور

محمـــد عمـــارة

تقــــديم

بقلم : المؤلـــف

الاعتقاد الشائع لدى طائفة من الناس أن معظم المسلمين فى مصر الآن ينحدرون من سلالة العرب الذين وفدوا فى جيش عمرو بن العاص عند فتح مصر ، ثم ممن وفد بعد ذلك من قبائل الجزيرة العربية فى أعقاب الفتح . وإن أقباط مصر جنس آخر ، فهم أحفاد سكانها الأصليين ، وهم ورثة الحضارة المصرية القديمة التى قضى عليها الفتح الإسلامى .

ولكن عندما فرغت من قراءة كتابى « عروبة مصر قبل الإسلام وبعده » للأستاذ محمد عزة دروزة ، و « وحدة تاريخ مصر » للأستاذ محمد العزب موسى ، وتثبت من مراجعهما ، تأكد لى أن ذلك الاعتقاد الشائع - بكل جزئياته - لا أساس له ، بل هو يناقض الحقائق التاريخية مناقضة بينة . فعروبة مصر قديمة إذ تسبق الفتح الإسلامى بقرون عديدة ، حيث كانت هجرة القبائل العربية . لاسيما من جنوب الجزيرة إلى مصر - عبر الحبشة والصومال والسودان - مستمرة منذ فجر التاريخ . كما اتضح من بحوث المؤرخين والأثريين وعلماء اللغة - أجانب وعرب - إن اللغة المصرية القديمة ، واللغة العربية ، أصلهما واحد .

كما أثبت التاريخ أن الفاتحين العرب إبرياء من دم الحضارة الفرعونية ، إذ أن المصريين أنفسهم - بعد أن دخلوا فى المسيحية - هم الذين انهالوا فى ذروة حماسهم للدين الجديد - على كل رموز الحضارة

الفرعونية ، فخربوا معابدها ، وحطموا تماثيل الآلهة ، وطاردوا كهنة الديانة المصرية بل وقتلوا منهم الكثيرين باعتبارهم وثنيين وسحرة . حتى الكتابة الهيروغليفية حاربوها وحطموا لوحاتها ، وتحولوا إلى الكتابة بالحروف اليونانية ... إلخ . كل هذا حدث فى مصر فى القرون الأولى للمسيحية ، وقبل البعثة المحمدية بزمان طويل .

وتأكدت من حقيقية هامة أخرى ، هى أن الأغلبية العظمى من مسلمى مصر الآن هم أحفاد لأقباط مصر الذين دخلوا فى الإسلام عقب الفتح العربى وعلى مدار القرون التالية ، وأن أقلية ضئيلة من مسلمى مصر اليوم هم أحفاد العرب الفاتحين .

وأثناء قراءاتى تلك ، كانت بعض الأحداث المؤسفة تقع من حين لآخر بين المسلمين والأقباط فى أنحاء شتى من أرض مصر ، فنبتت فكرة هذا الكتاب ، وشرعت فى تتبع تاريخ العلاقة بين أقباط مصر ومسلميها منذ الفتح الإسلامى حتى الآن . وألمّ بى العجب عندما وجدت أن تلك العلاقة كانت طوال تلك القرون ، علاقة مودة حميمة ، وترابط وثيق ، لدرجة أن الباحثين الأوروبيين الذين كانوا يقصدون مصر فى القرن الماضى وقبله لدراسة أحوالها السكانية ، قرروا أنه كان يتعذر عليهم تمييز الأقباط من المسلمين ، بسبب « وحدة » العادات والتقاليد وأسلوب التفكير ، وإن الفرق الوحيد بين القبطى والمسلم كان فى مكان العبادة . حتى هذا الاختلاف الوحيد لم يكن ذا شأن ، إذ من فرط المودة والتآلف ، كان المسيحيون كثيرا مايبنون مسجدا ويقدمونه هدية لإخوانهم المسلمين . وفى المقابل ، كان المسلمون يعيدون بناء الكنائس إذا ماتقادمت ..

إذن ، فالحوادث الدامية فى سنواتنا الأخيرة مؤشر واضح على أن نكسة خطيرة لحقت بذلك التآلف التاريخى الفريد .. ، وعندئذ اشتد عزمى على إعداد هذا الكتاب ، ولقد التزمت فيه بالأمانة العلمية ،

وتتبعت الأحداث التاريخية وأثبتها كما هى من أوثق المصادر . وإن حرصت على ألا يأخذ الكتاب شكل البحث الأكاديمى ، الخالص ، والجاف . فلم يكن ذلك غايتى ، وإنما كان هدفى أقرب مايكون إلى إخراج كتاب فى « التربية الوطنية أو القومية » ، يقوم حقا على أساس من التاريخ الموثق ، وإن لم يكن « كتاب تاريخ » ، ويهتمّ بإثبات الوقائع التاريخية ذات العلاقة ، دونما حاجة إلى استقصاء الحدث إلاّ فيما يتطلبه موضوع الكتاب .

ولقد كنت حريصا أيضا على أن يخرج الكتاب بالحجم والأسلوب الملائمين بحيث يشجعان القارىء العادى على الالمام بكل فصوله . فهى فى مجموعها تؤدى غرضا واحدا وإن تعددت مراحله : الكشف عن وحدة أصل الشعب المصرى ، والقاء ضوء قوىّ على وحدة نسيجه ، وتاريخ العلاقات الحميمة بين عنصرية الدّينيّين ، ثم وحدة تراثه الثقافى والحضارى ، ووحدة مصيره .

وكان لابد من الاعتراف بواقع مايجرى الآن على الساحة السياسية والفكرية فى مصر ، لشدة إرتباط ذلك الواقع بموضوع الأقباط . وأعنى بذلك وجود تيار إسلامى سياسى وجودا قويا من العبث إنكاره . فذهبت أستقصى أفكار ذلك التيار المعتمدة ، من واقع أدبياته وكتابات رموزه ، ومدى تأثير تلك الأفكار ـ سلبا أو إيجابا ـ على الحقوق القانونية والسياسية لأقباط مصر كمواطنين ، وأفردت لذلك فصلا وبعض فصل ، كى أفسح مساحة كافية لإزالة كثير من المخاوف التى لا مبرر لها ، والأفكار الخاطئة التى تعلقت بالعقل الدينى لكثير منا ، ولوّثت مجرى حياتنا بكثير من الكدر فى السنوات الأخيرة .

وأخيرا ، أقدم امتنانى للأستاذ طارق البشرى ، فقد أفدت كثيرا من مرجعه التاريخى الوثيق « المسلمون والأقباط » ، وللأستاذ فهمى هويدى ، أحد أبرز رموز التيار الإسلامى المستنير ، عن كتابه القيّم

« مواطنون لا ذميّون » ، وللدكتور محمد جابر الأنصارى الأستاذ بجامعة الخليج عن كتابه « تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى » ، وللأستاذ محمد عزة دروزة ، والأستاذ محمد العزب موسى عن كتابيهما اللذين ذكرتهما فى صدر هذا التقديم .

كما أشكر ابنتى حسناء التى وظفت تخصصها فى شئون المكتبات والوثائق فى إمدادى بعدد وافر من البحوث والدراسات والمقالات ذات العلاقة .

والله أسأل أن ينفع شباب الأمة بهذا الكتاب ، وأن يجعل هذا العمل المتواضع لبنة فى صرح مشروع حضارى قومى نستعيد به عزتنا ..

القاهرة فى أول فبراير ١٩٩٣ م

محمد إبراهيم المرشدى

الفصل الأول

بحوث المؤرخين عن أصل المصريين القدماء وأصل لغتهم

الفصل الأول

بحوث المؤرخين عن أصل المصريين القدماء وأصـــل لغتهـــم

يقول الأستاذ محمد عزة دروزه ان للعروبة فى مصر جذورا قديمة تمتد إلى عشرات القرون قبل الإسلام ، وتشمل معظم سكانها القدماء ، وعروبة مصر أصفى من عروبة بلاد الشام والعراق ، لأنه لايوجد فيها ما يوجد فيهما من كتل كبيرة أعجمية العنصر واللغة(١) .

ويذكر الدكتور حسن كمال فى « تاريخ السودان القديم » أن المصريين والسودانيين من أصل واحد ، وإنهم جاءوا إلى وادى النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال ، ويشير فى هذا إلى ماقاله تيودور الصقلى من أن المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية ، وإنهم نزلوا شواطىء أثيوبيا ، ثم تقدموا نحو الشمال ودخلوا مصر ، ولهذا يقول الأثيوبيون أن مصر مستعمرة من مستعمراتهم ، إذ أن سكانها القدماء جاءوا إليها منهم .

وجاء فى كتاب « العقد الثمين » للعالم الأثرى أحمد كمال ان المصريين القدماء كانوا يطلقون على بلاد حضرموت واليمن اسم « بون » ، وكانوا يعتقدون أن أصلهم منها(٢) . كما جاء فى كتاب « التاريخ العام الكبير » للأستاذ أحمد رفيق أن معظم علماء تاريخ مصر من الألمان يقررون أن المصريين القدماء جاءوا من آسيا الغربية ، بعضهم عن طريق باب المندب ، وبعضهم عن طريق برزخ السويس ، وإن بين لغتهم واللغات السامية فى المفردات والصرف والنحو تشابها كبيرا(٣) .

---

(١) محمد عزة دروزة ـــ عروبة مصر قبل الإسلام وبعده ص ٣

(٢) أحمد كمال ـــ العقد الثمين ص ٤٥ ـــ ٤٨ .

(٣) أحمد رفيق ـــ التاريخ العام الكبير ص ٥٥ ـــ ٥٦ .

ويقول مؤلفا كتاب « تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى » ، أن المعلوم يقينا أن قوم الملك « مينا » — موحد الوجهين البحرى والقبلى — كانوا قبل ظهوره يقطنون جنوب مصر ، ومما يدل على أن أجدادهم من الساميين أن أقدم ما وصل من لغتهم يغلب فيه العنصر السامى على العنصر الأفريقى . وقد جاءوا إلى مصر ومعهم حضارة أرقى مما كان فيها ، وهم الذين أتوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية[1] .

ويذكر فيليب حتى أن موجة من المهاجرين الساميين انساحت من الجزيرة العربية إلى مصر عن طريق أفريقية الشرقية حوالى سنة ٣٥٠٠ ق م ، وكان فيها (أى مصر) جماعة من الحاميين ، فامتزجت بها ، وتألف من هذا المزيج سكان مصر القدماء[2] .

ويقول : لو دققنا النظر فى اللغة المصرية القديمة لوجدنا تشابها واضحا بينها وبين اللغات الأشورية ، والبابلية ، والآرامية ، والكنعانية ، والعربية والحبشية ، يسوغ معه ردها إلى أم واحدة[3] .

ويرى العالم الأثرى الكبير الأستاذ سليم حسن فى بحثه عن أصل المصريين ، ان مصر كانت مسكونة منذ عصور ماقبل التاريخ بقوم من الجنس الحامى ، أفريقى الأصل ، ينسب إلى ليبيى أفريقيا الشمالية المسمين بالبربر ، وإلى الصوماليين فى شرقى أفريقيا ، ثم أخذت تدخل على هذا الشعب تغييرات عن طريق الهجرة الوافدة ، أهمها عناصر جديدة من أصل آسيوى جاءت من شبه جزيرة العرب ، عن طريق البحر الأحمر من جهة « قفط » أو طريق أعالى النيل ، أو عبر سينا إلى الدلتا ، وقد أدخلوا معهم مدنية أرقى من مدنية الجنس الحامى الأصل الذى لم يكن يعرف سوى الآلات والأوانى الحجرية ، وأدخلوا فيما أدخلوا التعدين وخاصة النحاس ، كما أدخلوا ديانتهم وكتابتهم ، وفنونهم ، ونظمهم الاجتماعية والسياسية[4] .

---

(١) سفيدج الأسكندرى — تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى ص ٦ ، ٧ .
(٢) فيليب حتى — تاريخ العرب المطول ص ١١ .
(٣) فيليب حتى — سورية والسوريون من نافذة التاريخ ص ١٣ .
(٤) سليم حسن — مصر القديمة ص ١٤٠ — ١٤٥ .

ويستخلص محمد عزة دروزة من بحوث المؤرخين أن بداية الانسياح العربى إلى مصر كانت فى القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد[1] . ويقول إن الأسر المالكة الست الأولى فى المملكة المتحدة القديمة (٣٢٠٠ — ٢٤٧٥ ق . م) كانت من العرب ، وقد اتخذ ملوك تلك الأسر الصقر رمزا لهم على عادة سكان الجزيرة العربية[2] .

ويتتبع الأستاذ دروزة الموجات العربية التى تتابعت على مصر بعد عهد الدولة القديمة ، فيقول إن موجات من العرب اجتاحت مصر عن طريق بلاد النوبة ، واستطاعوا حكم البلاد ، وكونوا الأسرتين الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، ثم جاءت موجات أخرى عن طريق سيناء وحكموا الدلتا وكونوا الأسرة الرابعة عشرة . ووفدت موجات من الليبيين — المرجح أن أصلهم عرب نزحوا من الجزيرة العربية إلى الصحراء الليبية فى عصور سحيقة — حكموا مصر الوسطى حيث كونوا الأسرتين التاسعة والعاشرة .

ويذكر الأستاذ دروزة أن الهجرة زادت كثيرا من بلاد الشام إلى مصر فى عهد الهكسوس واستمرت بعد طردهم من مصر ، وبذلك اتسع نطاق التبادل والتمازج العربى فى مصر فى عهد الهكسوس (١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق . م) ، وأصبحت اللهجة العربية القديمة التى كانت يتكلم بها الهكسوس وأهل الشام هى اللهجة السائدة خاصة فى مصر الوسطى والوجه البحرى[3] .

وينقل الأستاذ سليم حسن عن المؤرخ « لوريه » الذى استخلص آراءه من دراسة دقيقة للآثار قوله : إن قبائل وشعوبا من بلاد لوبية (ليبيا) ، وآسيا الصغرى ، وجنوب مصر ، جاءت إلى مصر فأنشأت فى مقاطعاتها الجنوبية والشمالية ممالك وإمارات ، وكان لكل منها إلهها الخاص ، ورمزها الخاص ، ثم تنازعت تلك الشعوب وتحاربت ، ثم تصنفت إلى أربع طوائف أو ممالك ، رمز إليها فى الآثار برموز النخلة والبوصة والثعبان والنسر . ثم تألف من النخلة والبوصة مملكة ، ومن الثعبان والنسر مملكة . ثم وفد على البلاد قوم من بلاد العرب عن طريق الصومال ، وتأصلوا فيها ، وكانوا جنسا ذا مواهب عظيمة ،

---

(١) محمد عزة دروزة — عروبة مصر قبل الإسلام وبعده ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٤ .

فأقاموا مملكة ثالثة رُمز لها فى الآثار برمز الصقر ، وقد تغلبت هذه المملكة فى النهاية على المملكتين الأوليين ، فأصبحت الممالك الثلاثة موحدة تحت سلطان وصولجان واحد . وبذلك قامت المملكة الفرعونية التى كان مينا أول ملك لها ، أو أول ملك عُرف من ملوكها[1] .

والمعروف تاريخيا أن الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة ، والتى حكمت مصر بين عامى ١٥٨٠ و ١٣٤٠ ق . م ، وكان أول ملوكها أحمس الأول ، استطاعت تكوين امبراطورية مصرية عظمى تمتد من حوض دجلة والفرات شمالا ، وتشمل بعض أنحاء العراق وجميع جزيرة الفرات ، وبلاد الشام ، وتمتد فى وادى النيل جنوبا إلى الشلال الرابع فى بلاد النوبة ، وغربا إلى الصحراء الليبية ، كما شملت بلاد بونت .

ومغزى ماتقدم أن مصر حكمت بلاد العراق والشام مائتين وأربعين عاما حدث خلالها تمازج وتبادل فى اللغات والعادات ، وتنقل الأشخاص والجماعات بين مصر وتلك البلاد التى كانت غالبية سكانها من الجنس العربى على ما عُرف من الآثار . ومن ذلك إن جماعة من الكنغانيين (وهم من الجنس العربى) كانت مساكنهم وممالكهم فى فينيقية (فى منطقة اللاذقية الآن) وفلسطين ، وشرق الأردن ، وفدوا على مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وسكنوا فى منطقة أبى الهول ، وكان لهم فى بلادهم إله اسمه « حور » ، فأطلقوا اسم « برحور » على أبى الهول . وكلمة « بر » فى اللغة الكنغانية تعنى « ابن » ، وتطورت تلك الكلمة مع الزمان فصارت أبا الهول . وقد وُجدت لوحة تعود إلى زمن امنحوتب الثانى سُمى فيها أبو الهول باسم الإله « حور »[2] .

وفى عهد تحتمس الرابع (من فراعين الأسرة الثامنة عشرة) انفجرت ثورة كبيرة فى فلسطين فقمعها ، ونفى عددا كبيرا من أهل فلسطين (من الجنس العربى) إلى مصر ، وأسكنهم فى مستعمرة أنشأها فى جوار المعبد الجنائزى[3] .

---

(١) سليم حسن ـــ مصر القديمة ج ١ ص ١٧٤ ـــ ١٧٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٠ ـــ ٣١٠ . (٣) المرجع السابق ج ٥ ، ص ٥٨ .

ولم يقتصر حكم مصر لفلسطين والشام على عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وإنما استمر هذا الحكم فى معظم عهود الأسر التالية . ودليل ذلك أن شيشنق أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٠ ـــ ٧٢٠ ق . م) مدّ سلطان مصر إلى جميع فلسطين وبلاد الشام بعد أن انكمش الحكم المصرى عن تلك البلاد فى عهد الأسرتين السابقتين . وقد عُرفت أخبار ذلك الغزو من نقوش على بوابة معبد فى طيبة . ثم مما ورد عنها فى الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك ، والاصحاح الثانى عشر من سفر أخبار الأيام الثانى[١] .

ولقد أوردنا تلك النصوص التاريخية الخاصة بغزوات ملوك مصر القديمة للبلدان العربية مثل الشام وفلسطين والعراق للتدليل على قيام عوامل التمازج وتبادل اللغات والعادات بين مصر وأهل تلك البلاد ، إلى جانب تأثير موجات الهجرة العربية إلى مصر منذ عصور ماقبل التاريخ على نحو ماقدّمنا .

ويسوق المؤرخون دليلا آخر على استمرار التمازج والاتصال بين عرب الجزيرة ومصر طوال عصور التاريخ القديم حتى العهد الرومانى سواء سلما عن طريق الهجرة ، أو حربا عن طريق الغزوات المتبادلة . ذلك إن ملكة « تدمر » الزّباء بنت عدىّ ، وهى عربية صريحة العروبة ، تمردت على حكم الرومان حوالى عام ٢٥٠ م ، فطردت حامياتهم ، وبسطت سلطانها على بلاد الشام وحوض الفرات ومصر ، وولت ابنها وهب اللاه ملكا على تلك المملكة العربية العظمى ، وقد عُثر على نقود مضروبة فى الأسكندرية تعود إلى سنتى ٢٧٠ و ٢٧١ م على أحد وجهيها صورة مزدوجة لوجهى وهب اللاه ابن الزبّاء ، وأوليانس الحاكم الرومانى .

ويروى التاريخ أن الزبّاء لما شعرت بأن أورليانس الرومانى يدبر لخرق الاتفاق معها ، أمرت بمحو صورته من النقود ، وضربت نقودا جديدة ، فقد عُثر على نقود مضروبة فى الأسكندرية تعود إلى سنة ٢٧٣ م عليها صورة وهب اللاه فقط .

ويقرر الباحثون أن وحدة الأصل والدم والطبائع بين المصريين وقبائل

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ص ٣٥٧ ـــ ٣٦٢ ترجمة سليم حسن .

العرب التى تكونت عبر عشرات القرون هى التى سهلت الفتح العربى الإسلامى لمصر ، وساعدت على سرعة اندماج المصريين بالفاتحين العرب بقيادة عمرو بن العاص(١) .

ويقول عالم الأجناس الطبيب أليوت سميث أن العرب الأصلاء ، والمصريين القدماء ، ينتمون إلى أصل مشترك واحد كان يسكن كل المنطقة التى يخترقها البحر الأحمر قبل زمن طويل من بداية التاريخ المكتوب(٢) .

ويرى الدكتور سليمان حزين أنه على الرغم من الغزوات التى تعرضت لها مصر فى العصور الفرعونية ، فقد احتفظ المصريون بصفاتهم الجسمية التى ربطتهم منذ عصور ماقبل التاريخ بسكان غرب آسيا الذى أصبح يُعرف فيما بعد بالشرق العربى ، ويقول : « وحتى عندما جاء العهد الأغريقى ، ونزحت العناصر الأغريقية إلى شمال مصر وغربها ، بقى أثر الأغريق محصورا فى نطاق ضيق ، و لم يلبث أن تحلل فى كتلة السكان الأصليين ، و لم يغير شيئا من الصفة العامة للسكان . وبعد الفتح الإسلامى ، نزحت إلى وادى النيل عناصر جديدة من القبائل العربية ، ولكن لم يترتب عليها تغيير التكوين العام للمصريين ، لأن هذه العناصر الجديدة كانت متشابهة فى قسماتها العامة مع سكان مصر . ولأن صلات السلالة والدم بين وادى النيل الأدنى وشمال الجزيرة العربية صلات وثيقة وقديمة .. وعندما حلّ الأتراك محل العرب فى حكم مصر ، كان عددهم محدودا ، وانحصر تأثير النمط التركى — وهو يختلف عن النمط المصرى العربى من حيث استدارة الرأس ، وشكل الأنف ، ولون البشرة وبنية الجسم — فى مناطق وطبقات خاصة من السكان . وكان عديم الأثر تماما فى البيئة الريفية(٣) .

□ ★ □

---

(١) محمد عزة دروزة — المرجع السابق ص ٨١ .

(٢) اليوت سميث — المصريون القدماء واصل الحضارة ص ٤٠ .

(٣) د. سليمان حزين — تاريخ الحضارة المصرية .

أصل اللغة المصرية القديمة

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة : « واضح مما تقدم أن موجات الجنس العربى ـــ قبل دور عروبته الصريحة ـــ أخذت تنساح إلى مصر قبل الأزمنة التاريخية المعروفة ، وتنتشر فيها ، وتنشىء الممالك الصغيرة ، ثم توحدها فى مملكة واحدة فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد ، وإنها (أى الموجات العربية) ظلت بعد ذلك دائبة على الاتجاه نحوها (أى مصر) من الجنوب والشمال ، واستطاعت أن تنجح المرة تلو المرة فتدخل بأعداد كبيرة حينا ، وأعداد صغيرة حينا ، وبعنف حينا ، وبهدوء حينا ، وتملأ أنحاء مصر ، وتكون صاحبة السلطان والمآثر فيها ، وإن جلّ الأسر المالكة بل كلها من الجنس العربى ، منها من كان من الأرومات والموجات القديمة السابقة للأزمنة التاريخية ، ومنها من كان من الأرومات والموجات المتأخرة .

« ولقد كان من نتائج ذلك أن غدت المفردات العربية القديمة (التى يحلو للباحثين أن يسموها أحيانا بالسامية) تشكل غالبية مفردات لغة مصر القديمة . قرر هذا بريستيد العالم الأثرى الشهير ، فقال ان الساميين طرأوا على مصر منذ أقدم الأزمنة ، وظلوا يطرأون عليها ، وعمموا لغتهم ، وصبغوا مصر بصبغتهم ، وإن اللغة المصرية حافظت على ساميتها بمرور الزمن ، وبالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف باختلاط السكان . وقرر أحمد كمال العالم الأثرى الشهير أن أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد ، وإن الاختلاف الظاهر بينهما ليس إلاّ نتيجة إسقاط بعض الكلمات فى بلاد العرب ، وبقائها فى وادى النيل أو العكس ، ثم نتيجة لما يعترى الكلمات من القلب والإبدال ، وما يطرأ على اللغات من تغير بمعاملة الأجانب .

كما قرر العالم الأثرى أحمد نجيب أن أصول اللغة المصرية مشتقة

من اللغات العبرانية والآرامية ـــ وهما عربيتان حسب اصطلاحنا ـــ وإن الضمائر المتصلة والمنفصلة فيهما متشابهة .

وقال المؤرخ التركى أحمد رفيق ـــ نقلا عن علماء وباحثين ألمان وانجليز سمّاهم فى كتابه « الحضارة المصرية » : إن بين اللغة المصرية واللغات السامية فى مفرداتها وصرفها ونحوها مشابهة كبيرة يسوغ القول معها انها كلها من أصل واحد ، كما قرر جوستاف لوبون أن كل جذور اللغة المصرية القديمة ومعظم قاموسها (مفرداتها) يتركب من عناصر سامية ، حتى أجروميتها فيما يتصل بتركيب المؤنث والجمع .

وقال أدولف أرمان ، وهرمان رانكان فى كتابهما « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة » : إنه من الممكن إرجاع اللغة المصرية القديمة إلى مجموعة من اللغات السامية ، بالإضافة إلى بعض اللغات الأفريقية الشرقية والشمالية التى امتزجت بها . وقد أثر عن العالم الأثرى أحمد كمال أنه وضع قاموسا فيه آلاف المفردات المصرية القديمة المتشاركة فى المعنى والمبنى مع المفردات العربية كدليل على ماقرره وأوردناه من أن أصل اللغة المصرية والعربية واحد .

ويقرر الدكتور عبد العزيز صالح « أن اللغة المصرية القديمة التى تكتب بالهيروغليفية ، تضم كثيرا من الأصوات والصيغ والمفردات السامية ، وهذا لايدل على مجرد الاقتباس ، بل الأرجح وجود أصل مشترك بينهما . وقد عرفت اللغة المصرية فى قواعدها النحوية كثيرا من الخواص الموجودة فى اللغة العربية من حيث وجود حروف العين والحاء والقاف ، وهى حروف اقتصر تداولها على اللغات السامية ، ثم من حيث شيوع الأفعال ذات المصدر الثلاثى فيها ، وغلبة الأفعال المعتلة الآخر بينها ، ومن حيث ماأخذت به فى تركيب عباراتها من سبق الفعل على الفاعل ، والحاق الصفة بالموصوف ، وتأكيد الجمل الأسمية بيدئها بحرف ، واستخدام صيغة المثنى ، وإضافة تاء التأنيث فى نهاية بعض الأسماء والصفات المؤنثة ، واستخدام تمييز البعض عن الكل ، واستخدام ياء النسبية وياء الإضافة للمتكلم ، وكاف المخاطب فى حالة المضاف إليه والمعطى له ، وكذا نون الجمع وواو الجماعة ، وإضافة ميم المكان وميم الأداة لتكوين أسماء مركبة ، وكل ذلك مما لا يتأتى إلا عن طريق وحدة الأصل بين اللغتين .

ويستمر الدكتور عبد العزيز صالح فى بحثه القيم فيقول : « كما أن هناك مفردات كثيرة مشتركة بين اللغة المصرية القديمة ، واللغة العربية الفصحى ، سواء المهجورة أو المستعملة إلى اليوم ، وسواء كانت تنطق بنصها ، أو مع تغييرات طفيفة نتيجة لاختلاف اللهجات المكانية ، ومنها أفعال وأسماء مختلفة ، فمن الأفعال التى تستخدم فى اللغتين بنصها ومعناها : حسب . فهم . ختم . خبّ . خر . شد . تم . تمم . بخر . وهى . وهن . هوى . زعق . عشق . حزن . نقمّ . نعى . قطف . بصق . ومن الأسماء : ذئب . جناح . قمح . سبى . قدْ . موت . منامة . بم . بركة . منحة . همهمة . حطمة . عين . صباع (أصبع) . أيد (يد) . ودن (أذن) .

« وهناك أيضا مشابهات فى الضمائر ، فضمير أنا العربى هو أنوك الفرعونى ، ومعى كان ينطقها المصريون القدماء (م . عاى) ، ومعنا ينطقونها (م . عانا) ، ومعك ينطقونها (م . عاك)[1] .

وإذا اعتبرنا أن الفتح الإسلامى لمصر بقيادة عمرو بن العاص هو بداية عهد عروبة مصر الصريحة ، فيجب أن نذكر حقيقة ذات دلالة قررها المؤرخون فى هذا السياق ، وهى أن ذلك الفتح لم يقم به الجيش الإسلامى وحده الذى دخل به عمرو قادما من الشام وفلسطين ، بل انضم إليه بعض القبائل البدوية الضاربة فى شبه جزيرة سيناء المصرية ، حيث أن قبائل صريحة العروبة كانت تقطن سيناء منذ القرن الثالث الميلادى ، منها قبائل بلما التى انضمت إلى حملة الزبّاء حين جاءت إلى مصر واستولت عليها على نحو ما سبق بيانه .

ومن الطبيعى أن يواكب انتشار الإسلام فى مصر بعد الفتح الإسلامى ، إنتشار اللغة العربية بين أهل مصر الذين دخلوا فى الإسلام ، باعتبارها لغة القرآن والشعائر الإسلامية ، فضلا عن كونها لغة القادة والولاة فى الدولة . وساعد على ذلك أيضا استمرار تدفق الموجات العربية من الجزيرة العربية

---

(١) د. عبد العزيز صالح من مقالة له فى الأهرام فى ٦ / ٨ / ١٩٦٩ .

والشام إلى مصر ، فى شكل حملات ، أو هجرة أفراد وجماعات ، وامتزاج كل أولئك الوافدين بأهل مصر امتزاجا كاملا .

ولقد تحقق ذلك بفضل « الفكرة العقيدية » لدى الفاتحين والوافدين المسلمين إزاء الشعوب والجنسيات الأخرى التى تدخل معهم فى الاسلام . فالفاتح الإسلامى لايعتبر نفسه — كالفاتح الرومانى أو الفارسى — طبقة عسكرية واجتماعية متميزة على أهل البلدان المفتوحة ، فلا يتيهون عليهم بعزة النصر وقهر الغلب ، ولا همَ يؤمنون — كالرومان مثلا — بأنهم جنس يعلو على سائر الأجناس ، له لغته الخاصة وأسلوب حياته الخاص . وإنما غاية الفاتحين المسلمين أن يحققوا « الأخوّة » بينهم وبين الشعوب التى دخلت فى الإسلام ، وعندئذ لايكون هناك فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربىّ إلاّ بالتقوى ، بنص تعاليم نبىّ الإسلام .

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة : « ان والى مصر عبدالله بن عبد الملك بن مروان بدّل لغة الدواوين فى مصر ، فنقلها من القبطية إلى العربية ، ولم يكن هذا ميسورا لو لم يكن جمهور كبير من أهل العلم بالحساب وشئون الدواوين من نصارى القبط ومسلميهم قد ثقفوا العربية واستعربوا خلال المدة التى لم تكن جاوزت الستين عاما على الفتح الإسلامى[1] .

ويعلق الأستاذ محمد العزب موسى على ماأثبته العلماء من وحدة الجنس وأصل اللغة بين المصريين القدماء والعرب فيقول : « وعلى ذلك يمكن القول باطمئنان ان مصر لم تكن غريبة على العرب ، والعرب لم يكونوا غرباء على مصر عند الفتح الإسلامى ، وإنما جاء هذا الفتح قمة لتلك العلاقات العرقية والثقافية والحضارية الضاربة فى أعماق تاريخ الشعبين ، وكان ذلك من أهم الأسباب التى مكنت للعرب الفاتحين فى مصر ، وجعلت المصريين — وهم الذين استعصوا على الرومان رغم جبروتهم — يرحبون بالعرب الفاتحين

---

(١) محمد عزة دروزة — المرجع السابق ص ٩٨ .

ويختلطون بهم فى شعب واحد[1] .

ونختتم هذا الفصل بتقرير للمؤرخ العالمى الكبير « فيليب حتى » يقول فيه : « كان سكان مصر يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، تربطهم بهم مالا يربطهم بحكامهم البيزنطيين الغاصبين ، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هى عند التحقيق إنقلاب اجتماعى سياسى ، استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر ، وجاء الإسلام مهيبا بالشرق أن ينهض من كبوته ، بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب »[2] .

□ ★ □

---

(١) محمد العزب موسى ــ وحدة تاريخ مصر ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) فيليب حتى ــ تاريخ العرب ص ١٩٤ .

الفصل الثانى

أسباب دخول الأقباط فى الإسلام بعد الفتح العربى

الفصل الثانى

أسباب دخول الأقباط فى الإسلام
بعد الفتح العربى

ترددت قديما وحديثا تفسيرات مغرضة عن أسباب دخول الأقباط فى الإسلام بعد الفتح العربى ، أهمها الزعم بأن الأقباط الذين أسلموا لم يكن إسلامهم عن إيمان بالدين الجديد ، وإنما كان هروبا من دفع الجزية ، وتزلفا للحكام الجدد .. ، وقد علق الأستاذ بتلر على ذلك قائلاً : « ليس من العدل أن يقال إن كل من أسلم إنما كان يهدف إلى المنافع الدنيوية .. ، قد يكون البعض قد فعل هذا ، غير أن هذا محال بالنسبة إلى الكل الذين اعتنقوا الدين الجديد ، فأغلبهم آمنوا حقا به ، لما رأوه من عدل الحكام المسلمين ورحمتهم واستقامتهم . وساعدهم على ذلك أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة من الأقباط كرهوا انحراف المسيحية عن تعاليم صاحبها وما أمر به من حب وتسامح ورجاء فى الله ، فقد نسى المسيحيون ذلك فى غمار ثوراتهم وحروبهم بين المذاهب والأحزاب المسيحية . فلجأ العاقلون منهم إلى الإسلام معتصمين بأمنه ، مستظلين بسماحته وبساطته » .

ويؤيد توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » رأى بتلر فيقول : « كان البعاقبة يشكلون الأغلبية العظمى من المسيحيين ، وقد لاقوا العسف من اتباع مذهب الروم . وكان بعضهم (أى اليعاقبة) يُعذب ثم يلقى فى اليم . وهلك كثير منهم ، وقد قدم الفاتحون الإسلاميون إلى القبط حياة تقوم على الحرية التى لم يظفروا بها من الروم ، وكفل لهم الحكم الإسلامى حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، ولم يضع يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب الولاة المسلمون عملا من أعمال السلب والنهب التى كانت قاعدة الحكم الرومانى » .

ويضيف توماس أرتولد : « ليس هناك شاهد على أن ارتداد أقباط مصر عن دينهم وتحولهم إلى الإسلام كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط من الحكام الجدد . بل لقد تحول كثير منهم إلى الإسلام قبل أن يستكمل الفتح ويتوطد الحكم الإسلامى فى مصر كلها . وقد يكون بعض الذين ارتدوا عن المسيحية إلى الإسلام قد فعلوا ذلك للخلاص من الجزية ، ولكن الثابت أن هذا الدافع لم يكن وراء إسلام أغلبية المسيحيين .

ويمضى توماس أرنولد قائلا : « إن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزبا منفصلا ، والشعائر التى جاهدوا للاحتفاظ بها وقتا طويلا ، ودفعوا ثمنها غاليا ، قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ماتكون غموضا وإبهاما من الناحية الميتافيزيقية ، ولا شك أن كثيرا منهم تحولوا — بسبب مااستولى على نفوسهم من حيرة وضجر وإعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم بينهم — إلى الدين الإسلامى حين رأوا فيه عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة .. وربما ساعد عدم وجود نظام كنسى مستقل يقدم طريقة لتوضيح ماغمض من تلك العقائد .. على زيادة عدد الذين تحولوا إلى الإسلام[١] .

ويقول الأستاذ محمد العزب موسى فى كتابه « وحدة تاريخ مصر » : خلال القرنين الأخيرين من الحكم البيزنطى ، أى من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الميلادى ، تدهورت أحوال مصر تدهورا بالغا لم يسبق له مثيل حتى فى ذروة عصر الاضطهادات الوثنية . ولم تكن نظرة الحكام البيزنطيين المسيحيين إلى مصر تختلف عن نظرة أسلافهم الرومان الوثنيين ، فمصر فى نظرهم ليست سوى أجران قمح ، تمد القسطنطينية بالغذاء كما كانت تمد روما من قبل . ولا يهم بعد ذلك استقر فيها الأمن أو اضطرب ، سادت الرفاهية أم عمّ الشقاء . وإنما كل مايهم الدولة وعمالها فى مصر أن ينتزعوا ولو آخر حفنة من القمح من المصريين سدادا للضرائب التى كان عبئها يقع كاملا على كاهل المصريين ، بينما يعفى منها كليا أو جزئيا الأجانب المقيمون فى البلاد ، الناعمون بخيراتها من بيزنطيين ويونان ورومان ويهود .

---

(١) توماس أرنولد — الدعوة إلى الإسلام — ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين ص ٩٢ وما بعدها .

ويقول الأستاذ محمد العزب موسى : « وأخذت الكوارث تتوالى تباعا على مصر ، فاختل الأمن ، واضطربت الأحوال ، وانتشرت عصابات اللصوص وقطاع الطرق ، وأغارت قبائل البدو والنوبة على أطراف البلاد . وأدى ذلك إلى توقف الكثير من مظاهر الحياة المصرية المألوفة منذ آلاف السنين ، إبتداء من فلاحة الأرض إلى زيارة المعابد والكنائس .

غير أن أسوأ ماتعرض له المصريون فى ظل الحكم البيزنطى تلك المظالم والاضطهادات التى كانت ترتكب فى حقهم باسم الدين ، أى بسبب اختلاف مذهب الدولة البيزنطية عن المذهب اليعقوبى الذى استقرت عليه الكنيسة المصرية منذ مجمع نيقية عام ٣٢٥ م .

ويروى الأستاذ العزب موسى كيف حاول هرقل استرضاء أقباط مصر فطلب من كبار رجال الأكليروس إيجاد صيغة توفيقية بين مذهب بيزنطة القائل بوجود طبيعتين للمسيح ، طبيعة لاهوتية ، وأخرى ناسوتية ، ومذهب الكنيسة القبطية المصرية القائل بوجود طبيعة واحدة لاهوتية للمسيح . ولقد توصل رجال الأكليروس لصيغة وسط تقوم على الاعتراف بأن للمسيح « إرادة » واحدة ، وتمنع الخوض فى « طبيعتها » ، هل هى واحدة أم ثنائية .

« ومع أن فى هذه الصيغة تنازلا ظاهرا لصالح أقباط مصر إلاّ أنهم رفضوها ، وكان يجلس على كرسى الكرازة المرقسية فى ذلك الحين الأنبا بنيامين ، وهو من أقوى آباء الكنيسة القبطية فى كل العصور ، وكان محبوبا من الشعب بقدر ماكان صلبا فى الحق .. وعقد مجمعا لرجال الدين والشعب بالأسكندرية ، حثّهم فيه على الثبات على عقيدتهم .. وتنبأ بموجة قاسية من المحن تستمر عشر سنوات ، يزول بعدها الغم . وكتب إلى جميع الأساقفة والقسس يأمرهم أن يلوذوا بالصحارى والجبال حفاظا على عقيدتهم الدينية ، وخرج هو إلى الصحراء الغربية ومنها إلى الصعيد حيث استقر فى دير صغير بالقرب من قوص »(١) .

ثم يمضى صاحب كتاب « وحدة تاريخ مصر » فى عرض المحن والآلام

---

(١) محمد العزب موسى — وحدة تاريخ مصر ص ١٥٥ — ١٥٧ .

الرهيبة التى لحقت بالقسس والرهبان من سفك دماء ، وسجن ، وهدم كنائس .. ويقول أن الأنبابنيامين ظل متخفيا من دير إلى دير ، فى الصعيد ، وفيافى الصحراء ، يشد أزر شعبه ، ويحثه على المقاومة والصمود . واستمرت موجة الاضطهاد عشر سنوات كما تنبأ من قبل ـــ قتل خلالها خلق كثيرون ، وهُدمت معظم الكنائس القبطية ، ونُهبت كنوزها وذخائرها ، واستحكمت العداوة فى قلوب المصريين تجاه جلاديهم البيزنطيين ، وصاروا يتطلعون إلى قوة تنقذهم من هذا البلاء المقيم . وفجأة ، وفى قمة اليأس ، فتح باب الخلاص على مصراعيه بمقدم الفاتح العربى عمرو بن العاص[1] .

ويروى بعض المؤرخين أن الأنبا بنيامين رأى فى منامه قبيل الفتح أن « مصر ستفتح لأناس مختونين » ، تجد خلاصها على أيديهم ، ونقل المؤرخان المصريان الرافعى وعاشور عن أقدم كتاب روى أحداث فتح مصر ، للمؤرخ ابن عبد الحكم ، قوله ان الأنبابنيامين عندما بلغه مقدم عمرو بن العاص ، جمع اساقفته وأبلغهم أنه لاتكون للروم دولة فى مصر ، وإن ملكهم قد انقطع . وأمرهم باستقبال عمرو . والثابت أن القبط كانوا عونا للعرب فى فتح بلادهم ، خاصة عندما زحف عمرو إلى الأسكندرية ، فكانوا يرممون لهم الجسور ، ويحضرون لهم المؤن والمعلومات المفيدة ، ويحاصرون معهم قلاع البيزنطيين »[2] .

ولابد أن أخبار الفتوحات الإسلامية فى بلاد الشام كانت تترى على أقباط مصر ـــ بواسطة التجار ـــ مصحوبة بأخبار الرحمة والعدل عن الجيوش الإسلامية ، كما لابد أن رفض عمر بن الخطاب أن يصلى فى كنيسة القيامة بفلسطين حتى لايطالب بها المسلمون من بعده .. لابد أن نبأ كهذا وغيره أثلج صدور المصريين المحزونين ، فاصبحوا على استعداد نفسى لاستقبال جيش المسلمين بالمودة والأعزاز .

وعندما استتب الأمر لعمرو بن العاص فى مصر ، ودانت له البلاد حتى الأسكندرية ، استهل عهده بأن أرسل يستدعى الأنبابنيامين من صومعته فى

(١) محمد العزب موسى ـــ المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٢) الرافعى وعاشور ـــ مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦ .

البرية ، وبعث إليه عهدا يؤمنه فيه على حياته وحياة القبط . ويطلب منه العودة إلى كرسيه ، ومباشرة شئون كنائسه ، ثم أعلن عمرو على رؤوس الأشهاد بعد أن العقى بالبطريرك بنيامين أنه لم يشاهد فى حياته كلها كاهنا مسيحيا أطهر ذيلا ، وأنقى صحيفة ، وأجل منظراً منه[1] .

ولم يقصر عمرو بن العاص عهده على البطريرك وحده ، وإنما أعطى العهد لأهل مصر جميعا ، بالأمان على أنفسهم ، وملتهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وصلبانهم ، وبرهم ، وبحرهم .. إلى آخر العهد الثابت فى صحائف التاريخ .

ويقول الأستاذ « بتلر » فى كتابه « فتح مصر » ان الأقباط اليعاقبة كانوا يقدمون فى ظروف كثيرة مساعداتهم سرا للسرايا العربية (وحدات الجيش العربى التى كانت تجوب البلاد للاستيلاء على الحاميات الرومانية) ، وأحيانا أخرى كانوا يقدمون تلك المساعدات علنا مما أيأس الروم ودفعهم إلى نفض يدهم من مصر . وتوطد السلطان العربى على معظم أنحائها فى وقت قصير لم يستغرق أكثر من سنة[2] .

ويضيف الأستاذ بتلر أن أهل مصر السفلى (الدلتا) حضروا إلى عمرو بعد فتحه الأسكندرية وشكوا إليه مما أوقعه الروم بقراهم من النهب والسلب ، وقالوا إنهم فى صلح مع العرب الأمر الذى كان يقتضى مدافعة الجيش الإسلامى عنهم وحمايتهم من عسف الروم . وقد أقرّ عمرو شكواهم وأمر بتعويضهم عما فقدوه[3] .

ويلقى الدكتور فاروق العادلى رئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة ، نظرة تاريخية على ظروف تحول أقباط مصر إلى الإسلام فيقول : كان المصريون أهل حضارة ، وبالتالى كان من السهل عليهم أن يستشعروا صدق الدعوة الإسلامية وعقيدتها فى صورتها البسيطة غير المعقدة .. واعتنقت مصر الإسلام ، ولم يكن جديدا عليها ، فمضامينه وقيمه نفذت إليها من قبل بالفطرة السليمة ،

---

(١) فيليب حتى — تاريخ العرب ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) بتلر — فتح العرب لمصر — ترجمة أبى الحديد ص ١٨٩ .

(٣) بتلر — المرجع السابق ص ٤٢٣ .

والدفع الحضارى ، فكثير من القيم التى أدركها المصرى القديم بفطرته ، أكدّها القرآن الكريم فى آية واحدة ﴿ **واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب** ﴾ .

ويقول الدكتور العادلى : « عرفت مصر حياة التدين منذ القدم ، فلقد نشأت الديانة المصرية القديمة فى أرض مصر كلها ، وتوصل المصرى القديم لمعنى الإيمان بالله الواحد ، كما آمن بالبعث والحساب فى الآخرة ، فلما هبطت الرسالات السماوية تقبلها المصريون دون عنف ولا مقاومة كما فعلت شعوب أخرى ، إذ جاءت تلك الأديان مصدقة لأصول مايعتقدون . ولقد غيّرت غالبية المصريين دينهم عبر التاريخ الطويل مرتين ، مرة حين اعتنقوا المسيحية ، ومرة حين اعتنقوا الإسلام ، فإذا سلمنا بأن المصريين اعتنقوا المسيحية عن رضا وبلا قهر ، فلماذا لايكون ذلك شأنهم مع الإسلام ؟

ويقول : « لم تكن مصر تنظر إلى العرب بالبغض كما كانت تنظر إلى الروم . فقد كانت تنظر إلى العرب بمودّة فى نفس الوقت الذى كانت تشعر فيه بحضارتها العريقة ، وآية ذلك أنها كانت تتندر أحيانا على العرب الفاتحين فى مواجهتهم ، فعندما بنى عمرو بن العاص حماما قال القبط ضاحكين : يصلح للفأر ! ، فبنى عمرو حماما آخر كبيراً نزولا على ملاحظة أهل العلم والحضارة .

ويمضى الدكتور العادلى فى بيان الأسباب الأخرى التى دفعت القبط إلى دخول الإسلام طواعية فيقول : « لم يجعل العرب من أنفسهم طبقة حاكمة تستأثر بالسلطة ، فقد أشركوا المصريين معهم فى كافة الوظائف حتى العليا منها ، وولّى المأمون على إحدى مدن مصر حاكما مسيحيا ظل محتفظا بمسيحيته .. كما أصدر المأمون كتابا فى المواريث أمر فيه بردّ تركة الميت من أهل الذمة إلى أهل ملته إذا لم يخلف وريثا ، بينما كانت تركة المسلم الذى لم يترك وريثا تذهب إلى بيت المال » . ومثل تلك السياسة لابد أن تقنع الكثيرين من الأقباط بالدخول فى الإسلام(١) .

---

(١) د. فاروق محمد العادلى وسعد رمضان ـــ الشخصية المصرية ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٩٠ .

ويقول المؤرخون ان الوظائف التى تولاها الأقباط فى مصر بعد الفتح لم تقتصر على الوظائف المالية والحسابية مثل جمع الضرائب ، بل كان منهم عمال (ولاة) على الأقاليم ، مثل ميناس حاكم المنطقة الشمالية ، وشنودة والى الريف ، وثالث تولى حكومة الفيوم . وكان بالحكومة المركزية فى الفسطاط موظفان قبطيان لإدارة مصر العليا ، ومصر السفلى .

وفى عهد مروان بن الحكم ترقى إثناسيوس الرهاوى إلى منصب الرئاسة على ديوان الأسكندرية ، وتلقب فى المكاتبات الرسمية بلقب « الكاتب الأفخم » . وفى عهد عبد العزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطيا اسمه بطرس ، وحاكم مريوط قبطيا أيضا اسمه تاو فانس(١) .

لقد بدأ دخول المصريين فى الإسلام فى وقت مبكر عقب الفتح . ولم يكن دافعهم الخلاص من الجزية ، فقد كانت دينارين فى العام ، كما لم تكن مفروضة على الجميع ، وإنما على القادرين ماليا وجسمانيا ، ولا يعقل أن يترك أحد دينه تهربا من أداء هذا المبلغ الضئيل لاسيما وان أقباط مصر عرفت عنهم — على نحو ماقدمنا — الصلابة فى العقيدة ، والعناد فى الرأى فى زمن القهر البيزنطى ، وهم إذ يدفعون بعد الفتح دينارين كجزية ، فقد أعفوا من ضرائب ثقيلة متعددة كانوا يدفعونها من قبل للبيزنطيين .

وقد حدث أن الوالى الأموى بشر بن صفوان استعظم تناقص الخراج بسبب كثرة الخارجين من النصرانية إلى الإسلام ، وأراد أن يضع حدا لهذه الظاهرة ، وأنبأ الخليفة عمر بن عبد العزيز بذلك فأغلظ له عمر القول والمعاملة ، وقال له مؤنبا : « إن الله قد بعث محمدا هاديا لا جابيا » .

وإذا كان الإسلام يعفى المسلم من الجزية ، فإنه يفرض عليه الزكاة ، وهى تزيد عن الجزية ، كما أنه لايعفيه من خراج الأرض ، ويوجب عليه الجهاد (أى التجنيد) ، ولا يوجبه على الذمى (فى ذلك الزمان) .. ومعنى ذلك أنه لم يكن هناك تخفيف مالى على من يدخل فى الإسلام بحيث يدفع الأقباط

---

(١) الرافعى وعاشور — المرجع السابق ص ٣٧ .

إلى ترك دينهم ، ثم أن الإقبال على الإسلام لم يقتصر على فقراء القبط ، بل انتشر بنفس القوة بين سراتهم ووجهائهم(١) .

ويجمع كثير من المؤرخين ، منهم المستشرق الإيطالى « كيتانى » على أن السببين الأساسيين لدخول الأقباط فى الإسلام هما : أولا ماانتشر عن الإسلام فى الآفاق وما لمسوه هم من معانى الرحمة والعدل فى المعاملة . وثانيا ضيق أقباط مصر بالخلافات المذهبية التى استحكمت فى المسيحية ، ونشرت البلبلة والجدل ، فى مواجهة بساطة العقيدة الإسلامية التى تنأى عن الجدل . ويقرر المؤرخون أن معدل دخول الأقباط فى الإسلام ظل يضطرد حتى بلغ فى الفترة من ١٢٤ إلى ١٢٨ هـ (٧٤١ — ٧٤٥ م) أربعة وعشرين ألف قبطى ، وفى عام ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) زاد المعدل كثيرا حتى لقد أسلم فى قليوب وحدها ٤٥٠ شخصا فى يوم واحد(٢) .

وأخيراً يقول الأستاذ بتلر : « إذا كانت ثمة ظاهرة انتشرت بقوة السلاح ، فهى سيطرة العرب السياسية ، وليست عقيدتهم الدينية » .

سياسة عمرو بن العاص والتزامه بعهده :

عدّد الأستاذ محمد عزة دروزة الاصلاحات العمرانية والإدرارية التى أدخلها عمرو بن العاص فى مصر ، وقال انه نظم الادارة والقضاء ، ووضع خططا عادلة لجباية الضرائب على قاعدة العدل الذى التزم به . وعنى عناية كبيرة بشئون الرىّ من كرى الخلجان ، وبناء المقاييس على النيل ، وإنشاء القناطر والجسور والأحواض . فاكتسب بذلك قلوب الأقباط الذين رأوا عهدا جديدا من الطمأنينة والحرية وتعفف الحكام .. ، ومهد ذلك لاندماجهم فى العروبة الصريحة الاسلامية(٣) .

والتزم عمرو بن العاص فى سياسته لمصر بالعهد الذى أعطاه لشعبها عند الفتح ، فحرّم أن يؤذى المصريون فى أجسامهم استيفاءً للضرائب ، وتعهد بألاّ

---

(١) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٢) الرافعى وعاشور — المرجع السابق ص ٣٣ .
(٣) محمد عزة دروزة — عروبة مصر قبل الإسلام وبعده ص ٩٤ .

تزيد عن جنيهين للرأس فيما عدا الشيخ والمرأة والطفل . واتبع عمرو هذه السياسة بدقة حتى لقد حاسبه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان على قلة خراج مصر ، وعزله الثانى لهذا السبب ، وعندما قال له عثمان بعد أن ولّى عبدالله ابن أبى سرح على مصر وبعث هذا مزيدا من الخراج « أرى اللقاح[1] قد درّت من بعدك ياعمرو » ، أجابه قائلاً : « حين أعجفتم فصالها » ، وفى رواية أخرى « ولكنها اضرّت ببنيها » . وحين عُزل عمرو بعد ولايته الأولى لم يتخلف عنده من المال مايغنيه ، وإلاّ لما قال له عثمان : « أرى جبتك قملت منذ عزلناك ! »[2] .

□ ★ □

---

(١) اللقاح : النوق (جمع ناقة) .

(٢) عباس محمود العقاد ـــ عمرو بن العاص ص ١٧٣ .

الفصل الثالث

تعريــــب مصـــــر

هل الفتح الإسلامى هو الذى أزال فرعونية مصر ؟

الاعتقاد الشائع لدى طائفة من الناس هو أن أقباط مصر هم الورثة الحقيقيون والمخلصون للحضارة الفرعونية ، وأبناؤها الشرعيون ، وان الفتح الإسلامى لمصر هو الذى قضى على الحضارة المصرية القديمة ، وقطع وشائج التاريخ بين مصر الفرعونية ومصر الإسلامية . وهذا الاعتقاد خاطىء تاريخيا .

وتحت عنوان « أسباب الانقطاع النفسى » بين مصر الحديثة ومصر الفرعونية ، أفرد الأستاذ محمد العزب موسى فى كتابه « وحدة تاريخ مصر » فصلا ضافيا أورد فيه أسباب ذلك الانقطاع ، وأرجعه أولا إلى عوامل الضعف التى تعمل عملها فى مصر الفرعونية منذ عهد مبكر يرجع إلى الأسرة العشرين التى أسسها رمسيس الثالث حوالى عام ١٢٠٠ ق . م حيث تعرضت مصر فى تلك المرحلة المبكرة . للغزوات والأطماع الأجنبية والثورات الداخلية التى مزقت حكم البلاد بين أمراء الأقاليم والكهنة ثم الحكام الأجانب ، فتعاقب على حكمها اللوبيون (٩٤٥ ق . م) والنوبيون ، والأشوريون ، والفرس ، والبطالسة ، والرومان الغربيون ، والبيزنطيون حتى عام ٦٤٠ م[1] .

ويقرر الأستاذ العزب موسى أن مصر خلال تلك العهود الأجنبية المتطاولة تدهورت عقيدتها القديمة ، وأصبحت مجرد طقوس ومتون يغلب عليها طابع السحر والخرافة ، وانتشرت عبادة الحيوانات لذاتها لا باعتبارها رموزا للآلهة . وأمام سيطرة الأجانب وسيادتهم ، وانحلال الجيش المصرى وزواله ، فقد المصريون ولاءهم لوطنهم ، وقتلت روح مصر القديمة المبدعة الخلاقة ، وفقد المصريون الرغبة فى الاستقلال ومقاومة الحكم الأجنبى ، ولم يلبثوا أن هربوا إلى المسيحية تاركين حضارتهم الوطنية جثة ميتة لاسبيل إلى إحيائها .

(١) محمد العزب موسى ـــ وحدة تاريخ مصر ص ٤٦ ـــ ٥٣ .

ثم يقول : « وممّا زاد من انفصام المصريين نفسيا عن تاريخهم القديم أن الحضارة المصرية لم تمت موتا طبيعيا هادئا ، وإنما لفظت أنفاسها بعد معركة عنيفة دامية بينها وبين ذلك التيار المكتسح الجديد ، إلا وهو المسيحية » .

ثم يتحدث عن انتشار المسيحية فى مصر فيقول : « خلال القرن الثانى الميلادى تأصلت المسيحية فى الأسكندرية ، وبدأت تنتشر حثيثا فى مختلف أنحاء مصر .. ثم أدى اعتناق الامبراطور قسطنطين للمسيحية حوالى عام ٣١٣ م إلى دفعة قوية للدين الجديد فى كل أنحاء الامبراطورية الرومانية ومنها مصر ، فتحول إليه كثيرون من عباد الآلهة المصرية القديمة ، وهُجرت مئات من المعابد المصرية فى جميع أنحاء الوادى .

وفى عام ٣٨٠ م أصدر الامبراطور ثيودسيوس أمره الشهير بإيقاف العبادات الوثنية ، واعتماد المسيحية كدين رسمى وحيد للامبراطورية ، فكان هذا الأمر بمثابة إشارة إنطلاق لتدمير كل الديانات والثقافات القديمة ، سواء فى مصر أو فى غيرها من الأقاليم الرومانية ، وتحولت موجة الاضطهاد ضد الوثنيين الذين تمسكوا بعبادة آلهة أبائهم ، وارتفعت السنة اللهب والدخان تغطى سماء الأسكندرية ، موطن الثقافة اليونانية وقلعتها الحصينة . ودمر المسيحيون المتعصبون كل ماهو وثنى فيها : مراكزها العلمية ، ومتاحفها ، ومكتباتها التى كانت قد جددت بعد حريق المكتبة الكبرى فى عهد يوليوس قيصر وأصبحت تضم ثروة لاتعوض من دواوين الشعر اليونانى والتراث الأدبى والفلسفى والعلمى والتاريخى لكل حضارات العالم القديم . وقتل المسيحيون فى إحدى ثوراتهم « هيباثيا » الجميلة ، أستاذة الفلسفة بجامعة الأسكندرية .

وفى عهد القيصر فالين تحولت جامعة قيصرية بالأسكندرية إلى كنيسة مسيحية ، وخُربت مكتبتها ، واحرقت محتوياتها ، وطورد فلاسفتها بتهمة السحر والشعوذة . وفى عام ٣٩١ م حصل البطريرك ثيوفيلوس من القيصر ثيودوسيوس على إذن بتخريب أكبر مزار فى العالم القديم ، وأكبر أكاديمية علمية فى مصر ، وهو « السيرابيون » ، وحرق مكتبته .

ولم تقف نقمة المسيحيين عند حدّ التخريب والحرق والتدمير ، بل تجاوزتها إلى أعمال الارهاب والاضطهاد والتعذيب للكهنة والعلماء الوثنيين ،

ففى القرن الخامس الميلادى نجد سيفريوس صديق البطريرك الانطاكى يعترف بأنه وصديقه الذى أصبح بطريركا لأنطاكية فيما بعد — وكانا منضمين إلى هيئة مسيحية بالأسكندرية — اقترفا فى أيام شبابهما كثيرا من الآثام والجرائم ضد العلماء الوثنيين ودور عبادتهم .

ثم ينقل الأستاذ العزب موسى عن العالم الطبيب جيمسون هارى قوله : « اندفع المسيحيون بقيادة قسسهم ورهبانهم يدمرون كل رموز الوثنية القديمة . وخلال فترة وجيزة ضربت مئات المعابد فى مصر . ومُنع الكهنة تحت التهديد بالموت من مزاولة طقوسهم المقدسة . وأُغلقت بقية المعابد أوحولت إلى كنائس وبيع . ويقال ان أربعين ألف صورة وتمثال للآلهة قد دمرت فى موجة واحدة من موجات النقمة على الوثنية فى ذلك العهد .

وبالرغم من كل ذلك ، استمرت بعض آثار العبادات المصرية القديمة قائمة فى أقاصى الصعيد ، وخاصة فى جزيرة فيلة على وجه التحديد التى أصبحت بمثابة المعقل الأخير لمن كتب لهم النجاة حتى ذلك الوقت من الآلهة المصرية القديمة وهم إيزيس ، وأوزوريس ، وصحور ، وختوم ، وامحتب .

ولكن ماإن انتصف القرن السادس الميلادى حتى بعث الامبراطور جوستنيان بقائده نارسيس إلى جزيرة فيلة للقضاء على آخر معاقل الوثنية فى مصر . فدمر معابد الجزيرة ، وحطم تماثيل آلهتها ، وأرسل كنوزها إلى القسطنطينية ، وألقى بكهنة معبد ايزيس العظيم — آخر حملة الثقافة القديمة — فى السجن حيث ماتوا جوعا وإهمالا[1] .

ويؤكد « هنريك ويليام فان لوم » تلك الواقعة حين يقول ان جزيرة فيلة كانت المكان الوحيد الذى بقيت فيه الكتابة المصورة المقدسة (الهيروغليفية) حيث كان هناك عدد قليل من الكهنة استمروا فى ممارسة تلك الكتابة التى نُسيت فى كل مكان آخر من أرض مصر . ويوجه فان لوم اللعنات إلى الامبراطور جوستنيان لأنه قضى على مفتاح الكتابة الهيروغليفية[2] .

---

(١) جيمسون هارى — امحوتب ص ١٤٠ .
(٢) فان لوم — تحرير الجنس البشرى ص ١٧ .

ثم يقول الأستاذ محمد العزب موسى : « خلال هذا الصراع الدامى الرهيب بين المسيحية والوثنية فى مصر ، ازداد المصريون إنقطاعا من الناحية النفسية عن تاريخهم القديم . و لم يعد الأمر مجرد انهيار الحضارة الفرعونية بكل مايقطعه هذا الانهيار من وشائج نفسية ، بل أصبحت هذه الحضارة أيضا هرطقة ملعونة ينبغى التنكر لها والقضاء على كافة آثارها ، والتبرؤ من الانتماء إليها . وحتى اللغة المصرية القديمة التى ظل المصريون يتكلمونها فى ذلك العصر تعلموا أن يكتبوها بالحروف اليونانية . ونسوا تماما كيف يكتبونها أو يقرأونها بالطريقة الهيراطيقية أو الديموطيقية[١] .

ويؤدك الدكتور حسين فوزى أن من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها الفرعونى لأنها فى الواقع (أى مصر) كانت قد نبذت تاريخها القديم عندما تحولت من الوثنية إلى المسيحية فى القرون الأولى بعد الميلاد . ومن الخطل أن نحمل المسلمين المصريين تبعة تخريب المعابد الفرعونية ، لأن المسئول الأول عن هذا التخريب هم المصريون المسيحيون . وإذا كان هؤلاء قد احتفظوا بلغتهم القديمة ، فإنهم يتحملون تبعة ضياع مفتاح الكتابة الهيروغليفية والديموطيقية حتى استغلق أمر النقوش المصرية على العالم خمسة عشر قرنا إلى أن كشف شامبليون رموزها فى أوائل القرن االتاسع عشر[٢] .

مما سبق يتضح بجلاء أن المصريين المسيحيين قاموا طوال القرن الرابع الميلادى بهدم المعابد المصرية القديمة ، وقضوا على الديانة القديمة والحضارة الفرعونية التى قامت عليها . وإذا كان الفتح الإسلامى لم يقع إلاّ فى القرن السابع الميلادى فمن الخطأ اعتباره مسئولا عما حاق بالحضارة الفرعونية .

□ ★ □

---

(١) محمد العزب موسى ــ المرجع السابق ص ٥٤ .

(٢) د. حسين فوزى ــ سندباد مصرى ص ١١٣ .

تعريب مصر

لم يكن دخول الإسلام مصر فى الفتح العربى هو السبب الوحيد فى تعريب أهلها ، وإلاّ فلماذا لم يتم تعريب بلاد فارس وقد دخلها الإسلام وبقى فيها كما بقى فى مصر . إن الأصول العربية والسامية التى ينحدر منها أقباط مصر ، والأصل الواحد للغتين المصرية القديمة والعربية ـــ على نحو ماسبق أن بينا ـــ كانا ـــ إلى جانب الإسلام ـــ من أسباب تحول أهل مصر من اللغة القبطية إلى اللغة العربية . تماما مثلما تعربت الشام والعراق حيث كان سكانهما من سلالات الأشوريين والسريان والآراميين ، وهم من الجنس السامى الذى انحدر منه العرب ، فضلا عن الأصل الواحد للغاتهم ولغة الفاتحين العرب .

ويضيف الأستاذ محمد العزب موسى إلى تلك الأسباب مافى اللغة العربية من الثراء والجرس والدقة ، ويقول إنها كانت أكثر نضجا من كل اللغات القديمة المعاصرة لها ، وقد وصل بها القرآن إلى قمة التطور .. ، ثم ينقل عن كتاب الدكتور مراد كامل « حضارة مصر فى العصر القبطى » مايلى : « إن اللغة القبطية ، وقت الفتح العربى ، كانت فى حالة بالغة من الضعف والتدهور ، فهى قد ابتعدت كثيرا عن اللغة المصرية القديمة وإن كانت تعتبر المرحلة الأخيرة المحتضرة لها . وهى من حيث الشكل صارت تكتب بحروف يونانية ، وخضعت لقواعد الحركة فى اللغة اليونانية بعد أن كانت اللغة المصرية القديمة (الديموطيقية) لاتعرف سوى الحروف الساكنة . ومن حيث المحتوى دخلها كثير من الألفاظ والتعبيرات الأجنبية خاصة من اليونانية والسريانية . وهجرت فى نفس الوقت كثيرا من الكلمات المصرية القديمة . ولم يكن ذلك دليل تطور وقوة ، وإنما كان ضعفا ، وخضوعا للغة اليونانية التى كانت فى ذلك الوقت لغة السيادة والثقافة العالمية ، كما أصبحت اللغة الرسمية فى مصر ، بها يكتب ويتحدث علية

المصريين تاركين اللغة الوطنية للجهال والعوام[1] .

ولا شك أن من أهم عوامل انتشار اللغة العربية فى مصر حاجة الأقباط الذين دخلوا فى الإسلام إلى الالمام الصحيح بأصول دينهم الجديد ، وفهم القرآن بلغته .

ولقد لمست شخصيا عندما كنت أعمل فى دولة غانا مدى تشوق الزنوج الذين دخلوا فى الإسلام إلى تعلم اللغة العربية لنفس الغرض .

ويقول الدكتور أحمد مختار عمر : « كان نزول العرب الوافدين إلى الريف المصرى ، واختلاطهم بالمصريين فى المعيشة والمعاملات والتزاوج ، من أسباب انتشار اللغة العربية أيضا . فقد صارت لغة تطارد الأذن المصرية فى كل مكان ، وأصبحت مألوفة لعوام القبط بعد أن كانت لغة الدين والثقافة والدواوين فحسب . واضطرد انتشار اللغة العربية فى مصر حتى أصبحت فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) لغة التخاطب العامة لكل المصريين على السواء ، وأصبح رجال الدين المسيحى يعظون بها كى يفهمهم سامعوهم[2] .

□ ★ □

---

(١) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٢) د. أحمد مختار عمر — تاريخ اللغة العربية فى مصر ص ٥١ — ٥٥ .

تكوّن الشعب المصرى العربى الواحد

بدأت الهجرة العربية إلى مصر بعد ظهور الإسلام بالقوات العربية التى أنجزت الفتح بقيادة عمرو بن العاص والزبير بن العوام ، وبلغ عددها خلال ربع قرن (١٨ ـــ ٤٣ هـ) بضع عشرات من الألوف نظمت لهم خطط (أحياء) فى مدينة الفسطاط . ثم استمر العرب يتوافدون على الفسطاط حتى بلغ عددهم فى عهد معاوية أربعين ألفا ، وكان عدد الحامية العربية بالأسكندرية ١٢ ألفا فى عام ٤٣ هـ زيدت إلى ٢٧ ألفا فى عهد معاوية . أما الصعيد فقد قصده عشرون الفا تحت قيادة عبدالله بن أبى سرح فى بداية الفتح ، بالإضافة إلى جماعات عربية أخرى لم تكن من قوام الجيش العامل ولكنها نزلت مصر فى ظله(١) .

ثم تتابعت الهجرات العربية إلى مصر ، وروى المقريزى أن ثلث قبيلة قضاعة هاجرت من الشام إلى مصر وتوطنت فيها ، وكان ذلك فى عهد عمر بن الخطاب . وذكر أيضا أن عامل الخراج على مصر عبدالله بن الحبحاب طلب من هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى أن ينقل عشائر من قبيلة قيس إلى مصر ، فأذن له بثلاثة آلاف منهم ، فألحقهم بوادى الحوف الشرقى (محافظة الشرقية) بمصر فانتشروا فيه(٢) .

ويقول المقريزى ان عامل الخراج هذا (ابن الحبحاب) لم يكتف بمن ذكر ، فكتب للخليفة هشام قائلاً : إن فى مصر كورا ليس فيها أحد ، ولا يضر أهلها نزول أناس معهم ، ولا ينقص ذلك شيئا من الخراج ، واستأذنه فى جلب عشائر قيسية أخرى من الأرومات العدنانية ، فأذن له ، فبعث إلى البادية ، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نضر بن معاوية بن بكر بن هوازن ،

---

(١) د. عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزى ص ٩٥ .
(٢) د. عبد المجيد عابدين ـــ المرجع السابق ص ٦٣ ـــ ٦٤ .

ومائة أهل بيت من بنى عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر ، ومائة أهل بيت من هوازن بن منصور بن عكرمة ، فأنزلهم « بلبيس » ، وأمرهم بالزراعة ، وصرف إليهم العشور ، فاشتروا إبلا ، كانوا يحملون الطعام إلى القلزم ويبيعونه فيصيب الرجل منهم فى الشهر عشرة دنانير وأكثر ، ثم أمرهم بتربية الخيول ، فكان المهر لايمكث إلاّ شهرا حتى يُركب ، وليس عليهم مؤونة علف إبلهم وخيولهم لجودة مراعيهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم فى الجزيرة العربية والشام ، وفد عليهم خمسمائة أهل بيت من قيس ، فلما مات مروان كان عددهم ثلاثة آلاف أهل بيت ..

ويلفت نظرنا فى أول هذه الرواية قول عامل للخراج للخليفة « ان فى مصر كورا ليس فيها أحد ، ولا يضر أهلها نزول أناس معهم .. » ، فهذا يفيد أنه كان هناك حرص على ألاّ يضايق الوافدون العرب أهل مصر فى أرزاقهم . كما يدل على أن كثيرا من أنحاء مصر كانت خالية أو شبه خالية من السكان ، فملأها العرب الوافدون ، وأنشأوا فيها قرى كثيرة جديدة فى الوجهين القبلى والبحرى ، وعملوا فى الزراعة وتربية المواشى والإبل ، ولم يكونوا عبئا على أهل مصر واقتصادها كما كان الشأن مع الغازين الفرس والروم وغيرهم الذين كانوا يترفعون عن الزراعة ، ويقطنون المدن حيث يمارسون سيادتهم على أهل البلاد ويبتزون أرزاقهم .

ولقد أخذت الاتصالات الأولى بين العرب الفاتحين وأهل مصر صورا شتى ، منها ماعرف بالارتباع ، إذ لم يكن الجند العرب يلتزمون الفسطاط طوال العام ، بل كان يؤذن لهم عندما يجيىء الربيع بالتحرك داخل البلاد للإصابة من خيراتها بالصيد وشرب اللبن وإطلاق خيولهم فى المراعى لتسمن ، وكان القادة يوصون الجند بأن يحسنوا معاملة سكان البلاد أثناء الارتباع ، وأن يكفوا أيديهم عن أموالهم وأبدانهم وأعراضهم ، وكان موسم الارتباع يستمر حوالى ثلاثة أشهر حتى إذا دخل الصيف انسحب الجند إلى الفسطاط . وهكذا كان الارتباع فرصة للاتصال المباشر بين العرب والمصريين ، وشيئا فشيئا بدأ الجنود وأهلوهم يستقرون فى أماكن ارتباعهم[1] .

---

(١) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٨٦ نقلا عن د. عبدالله خورشيد البرى .

ولم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين العرب والمصريين ، بل اقتضت ضرورات الأمن مرابطة جزء من القوات العربية فى الثغور والسواحل بصفة دائمة ، وهو مايعرف فى الاصطلاح العربى العسكرى بالرباط ، وكان ربع القوات العربية يرابط فى الأسكندرية وحدها ، وربع آخر يرابط فى سائر السواحل المصرية ، والنصف يستبقى فى الفسطاط ، ولم تكن القوات المرابطة فى الثغور تقيم فى معسكرات خاصة كالفسطاط ، بل تقيم بين الأهالى ، وهكذا كان الرباط وسيلة أخرى لتحقيق الاختلاط .

وبمقتضى اتفاقيات الصلح ، كان للعرب الفاتحين حق الضيافة على سكان البلاد إذا نزلوا قراهم ، ويستمر هذا الحق ثلاثة أيام ، ولذلك أقيمت فى القرى المصرية مبانى أو قاعات خاصة للضيافة تسمى بالليوان أو الأيوان ، ولا يزال بعضها قائما فى القرى حتى اليوم بالقرب من الكنائس . وفى هذه المبانى كان ينزل موظفو الدولة وجنودها والمهاجرون العرب ، وتتحمل القرية بأكملها نفقات ضيافتهم ، وهكذا كانت الضيافة شكلا آخر من أشكال الاتصال بين العرب الفاتحين وأهل مصر[1] .

فإذا أضفنا إلى هذا وفود بعض القبائل والعشائر العربية من الشام والجزيرة العربية — على نحو ما قدمنا — وانتشارها فى شرق الدلتا ، ثم فيها كلها ، فضلا عن الصعيد ، واشتغالها بالزراعة ، واتصالها الوثيق بالفلاحين المصريين فى القرى المجاورة ، وماتبع ذلك الانتشار من اختلاط ومعاملات وزيجات ، نكون قد بلغنا طور قيام مجتمع جديد — مصرى عربى إسلامى — جرى فيه الامتزاج بين العرب والمصريين اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا ، وذاب العرب القادمون فى محيط الشعب المصرى ، وأصبحوا ينتسبون إلى البلد الذى يسكنونه ، أو الحرفة التى يحترفونها ، وبمرور الأيام نسى الأحفاد قبائلهم الأصلية فى شبه الجزيرة العربية التى انحدر أسلافهم منها ، وهذا ماعناه المقريزى فى مقدمة رسالته « البيان والأعراب » بقوله : « اعلم أن الغرب الذين شهدوا فتح مصر أبادهم الدهر (بالموت) ، وجُهلت أحوال أكثر أعقابهم » .

(١) محمد العزب موسى — المرجع السابق ص ١٨٧ نقلا عن د. عبدالله خورشيد البرى .

ويصف الدكتور جمال حمدان امتزاج العرب الوافدين بأهل مصر فيقول : « من المسلم به أن الهجرة العربية بدأت بأعداد محدودة ، ولكنها سرعان ماتحولت إلى هجرة واسعة النطاق مختلطة النوع ، وقد أخذت فى البداية شكل شبه استقرار على أطراف الصحراء وحواف المدن ، خاصة الحوف الشرقى (أى شرق الدلتا) ، وشبه معسكرات فى المدن ، ولكنها لم تلبث أن استقرت فى بطن الحوف ، أى داخل الأراضى الزراعية والريف ، وانتثرت فى المدن ، وهكذا تم الاختلاط ، لا فى بؤرات المدن وحدها كما فى حالة اليونان والرومان من قبل ، وإنما فى تضاعيف الريف ، ولهذا كتب للتعريب أن يكون تحولا خالدا لا ظاهرة عابرة كالهللينية(١) .

ولقد حاول بعض الباحثين تقدير حجم الهجرة العربية بعد الفتح ، فقدرها البروفسور فلندرز بترى بحوالى ١٥٠ ألفا فقط ، بينما يذهب نعوم شقير فى كتابه « تاريخ سيناء » إلى أن ثلثى المسلمين الذين أحصاهم التعداد الرسمى فى مصر عام ١٩٠٧ وعددهم أحد عشر مليونا وربع المليون تقريبا يرجعون إلى أصل قبطى ، والثلث الباقى من أصل عربى وتركى واعجمى .

أما عبدالله خورشد البرى فقد أحصى القبائل والبطون العربية التى وفدت على مصر واستوطنتها خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح العربى فوجد مجموعها ٢٤٤ قبيلة أو بطنا . ويضيف الأستاذ محمد العزب موسى : « إذا افترضنا أن كلا من تلك القبائل أو البطون كانت تضم فى المتوسط ثلاثة آلاف شخص ، يكون معنى ذلك أن عدد العرب الوافدين يبلغ فى مجموعه ٧٣٢ ألفا أى حوالى $\frac{١}{٧}$ عدد المصريين الأصلاء ، إذا افترضنا أن عدد سكان مصر فى تلك الفترة كان فى حدودة خمسة ملايين نسمة(٢) .

وعلى أية حال ، فقد كان عدد العرب الوافدين بعد الفتح كافيا ــ بعد امتزاجهم بأهل مصر ــ لأن يدفع فيهم دماء جديدة ، ساعدت على انعاش

(١) د. جمال حمدان ــ شخصية مصر ــ كتاب الهلال ص ٣٠ .
(٢) محمد العزب موسى ــ المرجع السابق ص ١٨٩ .

العنصر الحضارى فيهم وبقائه . ولا شك أن جمهرة العرب المسلمين الوافدين كانوا أحفظ لدينهم وتعاليمه من كثير من ولاتهم الذين أفسدتهم السلطة ، وحب الدنيا ، فساعد ذلك المصريين على تقبلهم بينهم ، وفتحوا لهم صدورهم ، وسمحوا لهم بالنفاذ إلى صميم النسيج المصرى .

وهكذا استطاعت مصر تمصير تلك القبائل العربية وتهذيبها وامتصاصها ، وتحويلها من الرعى إلى الزراعة ، ومن التجول إلى الاستقرار . وفى المقابل تشربت منهم دينا سمحا عادلا لايختلف فى جوهره وسَمْته عن دينها ، فكلاهما خرج من مشكاة واحدة .



الفصل الرابع
مصر العربية فى عصرها الحديث

مصر العربية فى عصرها الحديث

استطاعت مصر خلال القرون القليلة التى أعقبت الفتح الإسلامى أن تصهر العرب الوافدين وأقباط مصر ـــ سواء من أسلم منهم أو من بقى على دينه ـــ فى بوتقة واحدة . وتكوّن من الجميع نسيج متين هو الشعب المصرى . وقد بلغت متانة هذا الاندماج الاجتماعى حدا جعل الأجانب الذين وفدوا على مصر بهدف دراسة أحوال شعبها ، لايستطيعون معه تمييز القبطى من المسلم .

ولعل مما ساعد على هذا التلاحم وحدة الآلام التى عاناها الأقباط والمسلمون على السواء من ظلم الأجانب ، وعلى الأخص فى عهود المماليك والأتراك العثمانيين . وفى هذا يقول جون بورنج المبعوث الانجليزى فى تقرير رفعه إلى بلمرستون وزير خارجية بريطانيا فى عام ١٨٣٧ م : أنه « لمس تعاطفا بين القبط وأبناء العرب ، لعله نتيجة مايقاسونه جميعا من آلام .. ، ولا يكاد يوجد بين أقباط مصر والنازحين من الأوروبيين أى اختلاط . ولا يُعرف عن عاداتهم (أى الأقباط) المنزلية إلاّ القليل ، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين ، فالحجاب مضروب على نسائهم كما هو مضروب على نساء المسلمين ، وفى الريف لاتكاد تفترق عادات الأقباط عن عادات أبناء العرب .. ، وهم كالمسلمين يؤمنون بالخرافات الشائعة فى البلاد ، سواء كانت تلك الخرافات راجعة إلى أصل إسلامى أم أصل مسيحى[١] .

وينقل الأستاذ طارق البشرى عن كلوت بك فى حديثه عن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين قوله : « إذا كان المسلمون بأوروبا (الغزاة الأتراك) قد اشتهروا بكراهة المسيحيين ، فلعل ذلك يرجع إلى سلوك الغالب مع المغلوب ،

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى وآخرون ـــ بناء دولة مصر محمد على ص ٣٨٧ ـــ ٣٨٩ .

دون أن تقع مسئولية فى هذا على مبادىء الدين الإسلامى .. ، ولا يسعنا إلاّ الجهر بأن العرب الصميمين أكثر تسامحا نحو الذميين من الشعوب الإسلامية الأخرى ، وإن المصريين يفوقونهم جميعا فى التسامح لما جُلبوا عليه من الرقة ودماثة الخلق[1] .

كما ينقل عن تقرير بورنج الذى سلفت الإشارة إليه قوله : « إن التسامح فى مصر قد خطا خطوات فسيحة فى السنوات الأخيرة (قبل عام ١٨٣٧) ، وأن الفوارق بين المسلمين والمسيحيين آخذة فى الاختفاء ، وأن المسيحيين يُرقّون إلى أرفع مناصب الدولة ، ولا يوجد من يتعرض لأقل مضايقة بسبب عقيدته الدينية .. ، وإذا ظلت الأمور تجرى على هذا النسق ، فستنقطع هجرة الترك بعد سنوات قليلة إنقطاعا يكاد يكون تاما ، وتؤول مقاليد السلطة إلى الوطنيين وحدهم ، مسلمين كانوا أو مسيحيين » .

ولقد تم الاندماج الكامل بين عنصرى الأمة المصرية ، الأقباط والمسلمين ، واعتراف الدولة ممثلة فى حاكمها ـــ الوالى محمد سعيد ـــ بتساوى الأقباط والمسلمين فى الحقوق والواجبات الوطنية مساواة تامة بالقرار الذى أصدره بتجنيد النصارى فى الجيش ، وتطبيق قانون الخدمة العسكرية عليهم . كما ألغى آخر علامات التفرقة الدينية بإلغاء الجزية التى كانت مفروضة على الذميين ـــ تم كل ذلك فى عام ١٨٥٥ م[2] .

ويجب أن نلاحظ أن هذا التطور الكبير بإعطاء الأقباط تلك الحقوق قد تم قبل الاحتلال الانجليزى لمصر بسبعة وعشرين عاما ، وأنه كان نتيجة طبيعية للاندماج الكامل بين أقباط مصر ومسلميها ، وللثقة التى ترسخت بينهما ، ولولا ذلك لما كان سهلا على الوالى الخاضع للخليفة العثمانى أن يتخذ تلك القرارات .

وكان من أهم القرارات التى صدرت فى هذا السياق ـــ على عهد الخديوى اسماعيل ـــ تعيين قضاة من الأقباط فى المحاكم ، وكان ذلك أيضا قبل

---

(١) طارق البشرى ـــ المسلمون والأقباط ص ٢٩ .

(٢) جاك تاجر ـــ أقباط ومسلمون ص ٢٣٢ ـــ ٢٣٨ .

دخول الانجليز مصر . ويذكر قلينى فهمى أن أول قبطى عين قاضيا كان عبد الملاك بك كتكوت الذى عُيّن بمحكمة قنا ، وإن جدّ قلينى فهمى وهو يوسف بك عبد الشهيد عين مديرا لديوان القضايا فى المنيا[1] .

وعندما أنشىء أول مجلس نيابى فى مصر فى عهد الخديوى اسماعيل عام ١٨٦٦ نصّ قانون إنشاء المجلس على أن كل شخص يبلغ من العمر ٢٥ عاما يكون من حقه الترشيح لعضوية المجلس بشرط أن يكون أمينا مخلصا ، وأن تتأكد الحكومة من أنه وُلد فى البلاد . وبهذا توالت التأكيدات على مبدأ المساواة بين المصريين دون تمييز لديانة على أخرى .

وبهذا دخل المجلس النيابى الأول جرجس برسوم عمدة بنى سلامة عن بنى سويف والفيوم ، وميخائيل أثناسيوس عن أشروبة من المنيا وبنى مزار . وكان مجموع أعضاء المجلس ٧٥ عضوا . وفى تشكيل المجلس عام ١٨٧٠ دخله المعلم فرج ابراهيم عمدة ديرمواس عن أسيوط ، وحنا يوسف عمدة نزلة الفلاحين عن المنيا وبنى مزار . وتكرر انتخاب هذين العضوين فى تشكيل ١٨٧٦ فضلا عن عبد الشهيد بطرس من البلينا عن جرجا[2] .

وفى مجال التعليم كان هناك نفس الاتجاه حيث أجمع مجلس الشورى على وجوب أن تقبل المدارس الأميرية المصريين من المسلمين والنصارى على السواء ، وفى عهد اسماعيل أرسلت الدولة ضمن بعثاتها التعليمية إلى أوروبا الأقباط مع المسلمين ، فكان منهم جرجس قلدس القاضى ، ومسيحة لبيب ، ونسيم وصفى ، وفرج نصحى ، وميخائيل كحيل ، وقسطندى فهمى ، وغيرهم[3] .

ويعرض المستشار طارق البشرى صفحة ناصعة من صفحات آباء الكنيسة القبطية العظام حيث يروى نشاط البطريرك كيرلس الرابع الملقب بأبى الاصلاح ، ففضلا عن المدارس التى أنشأها لتعليم أبناء الأقباط منذ أن رسم مطرانا فى عام ١٨٥٣ لمواجهة نشاط المدارس التبشيرية الأجنبية ، أنشأ مدارس

---

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٣٠ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى — عصر اسماعيل ص ١٤٩ — ١٥١ .

(٣) د. أحمد عزت عبد الكريم — تاريخ التعليم فى مصر ص ٦٩٨ — ٧٢٢ .

قومية للمحافظة على كيان مصر الواحد ، ومسايرة ركب الحضارة . وكانت مدارس تعلم اللغات الحية والعلوم النظرية والعملية ، وفتح أبوابها « لبنى مصر أجمعين دون تفريق بسبب عقيدة أو دين أو مذهب » ، ثم سعى لدى الحكومة كى تشرف على امتحاناتها وبرامجها ، وتخرج منها فيما بعد كثيرون من قادة الادارة والرأى العام مثل بطرس غالى وقلينى فهمى وكامل عوض سعد الله وغيرهم من الأقباط ، ودرس فيها أيضا عبد الخالق ثروت وحسين رشدى ممن تولوا رئاسة الوزارة ، ومحمود عبد الرازق الذى أصبح وكيلا لوزارة الداخلية ، وغيرهم من كبار رجال القضاء والمال والإدارة .

وإذا كان موقف آباء الكنيسة القبطية نبيلا تجاه إخوانهم فى الوطن ، فقد كان كذلك موقف شيوخ الأزهر تجاه الأقباط . وينقل الأستاذ طارق البشرى عن كتاب « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » لمؤلفه ميخائيل شاروبيم قوله إن الوالى عباس الأول كان شديد النقمة على النصارى ، وأراد أن يدبر إخراجهم من وطنهم وإبعادهم إلى السودان ، ولزم لذلك أن يستصدر من الأزهر فتوى بجواز ذلك . ولكن الشيخ الباجورى شيخ الأزهر آنذاك رفض ذلك رفضا قاطعا وقال : « إن النصارى من أهل البلاد وأصحابها ، ومن ناحية الدين فهم فى ذمة الإسلام إلى اليوم الآخر ، ولا يجوز الحاق أدنى أذى بهم » . وبذلك خاب تدبير الوالى . ولا شك أن موقف عباس هذا كان شخصيا بحتا ، ولم يتكرر قط من أحد من خلفائه .

ومثلما كان الوالى محمد على الكبير وخلفاؤه يُنعمون على شاغلى الوظائف الكبرى من المسلمين باقطاعيات زراعية ، كانوا يفعلون الشيء نفسه مع اقرانهم الأقباط ، فقد منح محمد على باسيليوس غالى وأخويه طوبيابك ودوس بك ٢٢٠٠ فدان فى المنيا وبنى مزار فى عام ١٨٣٥ . وتوالت عليهم الانعامات حتى كان دوس فى عهد اسماعيل يمتلك ١٠٦٥ فدانا بالقليوبية والمنيا وأسيوط ، كما كان يمتلك ورثة طوبيا ١٥٣٠ فدانا ، وورثة باسيليوس ٩٥٠ فدانا . وشنودة ناشد الذى كان يعمل كبيرا لكتاب ابراهيم باشا منح ٥٠٠ فدان بالمنيا ، وصار فى عهد اسماعيل يمتلك ٩٠٠ فدان ... إلخ[1] .

---

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٣٩ .

ورغم الجهود التى بذلها لورد كرومر فى محاولة التفريق بين أقباط مصر ومسلميها وإثارة الفتنة بينهم كخط استراتيجى استعمارى ، فإنه اضطر للاعتراف بالامتزاج الكامل بين عنصرى الأمة حيث يقول ان تجربته الخاصة تقوده إلى عدة نتائج ، منها أن القبطى المصرى اكتسب خصائص أخلاقية يتصف بها المسلم المصرى ، وأن هذا الاكتساب يرجع إلى ظروف لاتتعلق بالاختلاف فى العقائد .. والخلاف الوحيد بين القبطى والمسلم أن الأول مصرى يتعبد فى كنيسة مسيحية بينما الآخر مصرى يتعبد فى مسجد محمدى[1] .

وإزاء ضيق كرومر من عدم استجابة أقباط مصر لتوجهاته الاستعمارية ، هاجمهم هجوما شديدا إلى حد انكار مسيحيتهم ، ومما قاله « إن القبطى رغم عقيدته أصبح معتقلا فى ذات الأغلال التى قيدت المسلم ، وإن القبطى من الرأس إلى القدم لايعدو أن يكون مسلما فى عاداته ولغته وروحه » .

ويتحدث جورج يونج فى كتابه « مصر » عن أحوالها فى الفترة التى سبقت الاحتلال البريطانى وحتى ثورة ١٩١٩ فيقول : لاتوجد فى مصر تفرقة طائفية ضد الأقباط كتلك التفرقة التى تعانى منها الأقليات الضعيفة فى أوروبا .. ، والكتاتيب مفتوحة للأقباط الذين يمكنهم أن يتلقوا فيها تعاليم دينهم ، وفى الأقاليم التى تزيد فيها نسبة السكان من الأقباط تقدم الحكومة للمدارس القبطية إعانات لها أثرها . وعندما لايتمكن الأقباط من الوصول إلى المجالس النيابية المحلية كمجالس المديريات يُعين فيها عدد منهم . ومنذ قرن لم يحدث اضطهاد لهم ، وإنهم عانوا ضيما من أهل ديانتهم المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك أكثر مما عانوا من أهل وطنهم المسلمين .

ويقول يونج : إنه من المثير للفضول أن يُلاحظ أن العلاقة بين العنصرين تظهر أوثق ماتكون فى المناسبات الدينية ، إذ يبنى الأقباط مساجد المسلمين ، كما يعيد المسلمون بناء الكنائس القبطية ، ويذهب المسلمون والأقباط إلى زيارة الأضرحة ذاتها للأولياء والقديسين المحليين . ويتناقلون الأقاصيص ذاتها ،

---

(١) كرومر — مصر الحديثة — المجلد الثانى ص ٥٦٨ — ٥٦٩ .

ويهزجون بالأغانى ذاتها ، ولهم الفضائل ذاتها ، والصفات ذاتها ، ووجهات النظر ذاتها عن الحياة . لذلك لم يكن الاخاء القبطى الإسلامى فى عام ١٩١٩ جديدا ولا طارئا[١] .

وتذكر صحيفة « الوطن » القبطية فى عدد ٥ مايو ١٩١٦ أنه كان للأقباط قديما رواق بالأزهر يتلقون فيه العلوم المنطقية والشرعية ، وان ممن درسوا بالأزهر قديما أولاد العسال ، وهم من كبار مثقفى القبط ولهم مؤلفات هامة . وممن درسوا فيه حديثا ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن ، إذ درس فى الأزهر ثم انتقل إلى دار العلوم ، ووهبى تادرس الشاعر الذى كان يحفظ القرآن الكريم ويكثر من الاقتباس منه ، وفرنسيس العتر الذى كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده عام ١٩٠٢ .

وجدير بالذكر أن المدارس الحكومية لم تكن تعرف تعليم الديانة المسيحية للتلاميذ الأقباط أيام كان مستر دانلوب أو يعقوب ارتين مشرفين على التعليم المصرى . وقد طلب الأقباط من كل منهما تعليم المسيحية لأبنائهم فى المدارس أسوة بتعليم الإسلام للتلاميذ المسلمين ، فلم يستجيبا لهذا المطلب . فلما تولى سعد زغلول نظارة المعارف فى عام ١٩٠٧ قرّر إدخال هذه المادة بمنهج المدارس الابتدائية الحكومية قائلا : « نريد أن يكون الأقباط ، وهم شركاؤنا فى البلاد ، عالمين بمبادىء عقيدتهم ، متمسكين بقواعد دينهم ، فالذى لا دين له ، لا أمان ولا وفاء له »[٢] .

وبهذا أظهر سعد زغلول — زعيم مصر فيما بعد ، وقطب الرحى فى أروع وحدة وطنية شهدها العالم الحديث — جرأة تليق بزعيم ، واستنارة دينية ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان تلميذا نجيبا لرائدى حركة الاصلاح الدينى والتنوير فى مصر الحديثة — الأفغانى ومحمد عبده .

وفى مقالة للأستاذ « كامبفماير » عن جمعية « الشبان المسلمون » التى تأسست فى مصر عام ١٩٢٧ وكانت تمثل مرحلة انتقالية بين النمط السابق

---

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٤٢ .

(٢) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٢٥٨ .

من الجمعيات الدينية ذات النشاط المقصور على الميادين الثقافية والخيرية ، وبين الجمعيات الدينية ذات النشاط السياسى السافر — يقول « إن نقطة الانطلاق لدى مؤسسى الجمعية هى خدمة أوطانهم وخدمة الشرق » (إذ أنشئت للجمعية فروع فى عدة أقطار عربية أخرى) . ثم يتساءل من وجهة نظر الأوروبيين عما إذا كان الاسلام عدوا لهم أو حليفا ، ويجيب بما لاحظه من أن العالم العربى لا ينطوى على عداء للأوروبيين ولا للمسيحيين إذ يحيا المسلمون والمسيحيون فى الشرق معا ، إنما مايبعث على الكراهية فى هذه المنطقة فى نظره هما أمران : الاستعمار والتبشير ، والمسلمون يكرهون التبشير ولا يكرهون المبشرين — وينتهى إلى أن نشاط المبشرين فى البلاد الاسلامية نشاط عقيم لن يحقق هدفه ، وهو نشاط ضار لكونه يثير كراهية المسلمين .

□ ★ □

فكرة الوطنية والإسلام

ربما كان رفاعة الطهطاوى أول مفكر يتحدث بافاضة عن « الوطنية » المصرية بالمفهوم الحديث للقومية ، فيستعيد أمجاد مصر الخالدة فى عصر الفراعنة ، ويدعو إلى الاعتزاز بها . ولقد اعتبره بعض الإسلاميين المعاصرين ـــ وهم ظالمون له فى رأيى ـــ انه كان بذلك يعمل على مقاومة التوجه الإسلامى فى الحكم والسياسة ، ويحارب فكرة الجامعة الإسلامية التى نادى بها الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبى (فى سوريا) ، وغيرهم . وغذّى هذا الظن ـــ فى رفاعة ـــ انبهاره المعلن بالحضارة الغربية التى عايشها فترة من الزمن فى باريس . فاعتبر بعض الإسلاميين أن الشيخ الأزهرى قد فُتن بحضارة الغرب وفكرها القومى ، ونسى عالمية الإسلام ، وأخذ يدعو إلى القومية « الضيقة » ... إلخ .

ولكننا حين نقرأ فكر الرجل فى كتابه « مناهج الألباب » ، نجده يدعم فكرته عن الوطنية أو القومية بأدلة ناصعة من القرآن والحديث وآثار الصحابة ، مما ينفى عنه أية شبهة فى مناوأة الإسلام ودفعه عن الساحة ، وإحلال القومية المصرية محله . بل هو يوفق بين الجانبين توفيقا هينا لينا ، ولا يحاول التلفيق بغية التوفيق ، إذ الوفاق هنا قائم فعلا فى الأفهام السليمة ، والطبائع المنصفة .

ولنمعن النظر فى قول الطهطاوى : « إن حضارة مصر وتمدّنها على جانبين ، التمدّن بصنائع العمران ، والتمدن فى الأخلاق والفوائد والآداب ، أى التمدن فى الدين والشريعة . والدين ـــ كما يقول الطهطاوى ـــ « أقوى قاعدة لصلاح الدنيا واستقامتها لأنه زمام الانسان » . ويقول : « إن الدين هو ملاك العدل والاحسان ، وذلك جوهر فكرة المساواة ، كما لأنه أساس

الأخوة ، سواء الأخوة الدينية أو الأخوة الوطنية .. ، ومن ذا الذى يجترىء أن يعاند مولاه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » ، وحسبنا فى هذا المعنى قول الكرّار (يقصد عليا بن أبى طالب) : أما وقد اتسع نطاق الإسلام ، فكل امرىء وما يختار »[1] .

وبعد أن يوضح الطهطاوى أن الإسلام لا يمنع قط قيام ديانات أخرى إلى جواره ، ينتقل إلى الحديث عن محبة الوطن فيقول : « إن إرادة التمدن لاتنشأ إلاّ عن حب الوطن ، وحب الوطن من الايمان » ، ويروى عن عمر بن الخطاب قوله « عمّر الله البلاد بحب الأوطان » ، وعن علىّ بن أبى طالب قوله : « سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده » . ويقول : حين خرج النبى من مكة علا مطيته واستقبل الكعبة وقال : « والله لأعلم أنك أحب بلاد الله إلىّ » . ثم يروى عن عبدالله بن عمر : « أن أهل مصر (يعنى الأقباط) أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة » ، وهو بهذا يشير إلى هاجر أم اسماعيل عليه السلام ، فقد كانت من قرية « أم دينار » أو « أم دنين » وكلاهما بمصر ، وإلى مارية أم ابراهيم فإنها من قرية بإقليم الجيزة ، كما ينقل الطهطاوى عن عمر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لهم منكم صهرا وذمة »[2] .

ورغم أن الشيخ محمد عبده كان مع أستاذه الأفغانى من رواد فكرة الجامعة الإسلامية ، فإنه لم ير تعارضا بين « الوطنية » والإسلام . ويحكى عنه تلميذه الشيخ رشيد رضا أنه كان يرى الوطنية فى تعاون أهل الوطن الواحد ، المختلفى الأديان ، فى كل مافيه عمرانه وإصلاح حكومته ، وبرز موقف الإمام من الأقباط حينما اتهمت إحدى الصحف المصرية بطرس غالى وكيل وزارة الحقانية بمحاباة الأقباط ، فردت عليها صحيفة أخرى بما خشى منه الامام أن يكون إثارة لفتنة ، فكتب يهاجم تلك « المشكلة المصطنعة » قائلا « إن التحامل على شخص معين (يقصد بطرس غالى) لا ينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوى ـــ مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية ص ٧ و ٩ .
(٢) رفاعة رافع الطهطاوى ـــ المرجع السابق ص ١٠ ، ١٥ ، ١٦ ، ٦٤ .

طائفة أو أمة أو ملة » ثم ذكر أن طائفة الأقباط « أظهرت بحسن سيرتها مع المسلمين من مواطنيها ماأهّلها لوجوب المحافظة على وصية النبى ﷺ » ثم استطرد فى الثناء على بخلق الأقباط وأمانتهم « التى برزت فى توليهم شئون المال بالحكومة المصرية فى مختلف العهود »[1] .

□ ★ □

(١) محمد رشيد رضا ــ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول ص ٩١٨ ، والجزء الثانى ص ٣٦١ .

الأزمة الطائفية (١٩٠٨ - ١٩١١ م)

ظل الوئام التام ساريا بين عنصرى الأمة المصرية حتى عام ١٩٠٨ حين اشتعلت مجادلات سياسية عنيفة خاصة بين بعض الصحف المسيحية والإسلامية ، واستمر هذا الجدل محتروما حتى عام ١٩١١ . ولا شك أن هذا كان نتيجة الجهود الانجليزية المكثفة لتفريق صف الأمة . ويلاحظ المستشار طارق البشرى أن المتجادلين كليهما كانا ــ برغم خلافهما ــ يصدران عن أرضية فكرية واحدة ، تاريخا وتكوينا نفسيا .. فمن هاجم المسلمين لسوء معاملتهم للقبط ، وأوغل فى اللدد ، كان يقارن بين هذا الحاضر التعيس ، وبين الماضى المجيد أيام الفاطميين وغيرهم من دول التاريخ الوسيط ، وينقل الصور والمآثر عن هذا الماضى المشترك بين المصريين جميعا ، الداخل فى تراثهم الواحد .

ويقول المستشار طارق البشرى : « وتتضح هذه الأرضية المشتركة فى أنه لم يتماد من القبط إلى الدعوة إلى قومية قبطية إلاّ النزر اليسير منهم ، ولم يستجب لهؤلاء عدد له أدنى أثر .. كتب رمزى تادرس فى كتابه « الأقباط فى القرن العشرين » يقول « إن الاخاء طبيعة فى الأمة ، والوحدة فطرة فيها ، فقد ثبت أيضا أنها (أى الأمة المصرية) من دم واحد وجنسية واحدة وصورة واحدة يصعب معها على الأجنبى والمتمصر أن يميز بين القبطى المسلم والقبطى المسيحى » . ثم ينقل عن « ماسبير »[1] قوله أن القطر المصرى ينقسم دينا إلى قسمين عظيمين أحدهما من الأقباط ، والثانى من المسلمين ، وأن الأقباط هم سكان البلاد الأقدمون ، أما المسلمون فهم

---

(١) ماسبير جاستن ١٨٤٦ ــ ١٩١٦ م متخصص فى المصريات وعمل مديراً لمصلحة الآثار المصرية أكثر من مرة .

أيضا اعتنقوا الإسلام ، فكلهم إذن مصريون ، وذكر أنه لايوجد مصران واحدة مسلمة ، وأخرى قبطية ، بل توجد مصر واحدة ، لأن مسألة مسلم وقبطى مسألة دينية ، وفى فرنسا وطنيون من أديان مختلفة(١) .

ويرى الأستاذ طارق البشرى أن الفكر السياسى القبطى الذى ظهر خلال تلك الأزمة الطائفية كان انفعالا معاديا لفكرة الجامعة الإسلامية ولدعاتها . ولكننا نرجح تفسيرا آخر ، هو أن ذلك الفكر إنما كان يعادى أساسا استمرار السيادة العثمانية على مصر ، لما صحبها من استبداد ومظالم ، وقصور الحركة الوطنية التى كانت بازغة فى تلك الأيام عن المطالبة بالتخلص من السيادة العثمانية ، واقتصارها على المطالبة بطرد الانجليز . يقول الأستاذ رمزى تادرس فى كتابه عن هذه المسألة : « إذا طلبوا الاستقلال كان فقط لجلاء المحتلين المسيحيين وبقاء سيادة العثمانيين المسلمين ، ولو فى بقائها منافاة لمعنى الاستقلال الصحيح(٢) .

إلاّ أن الجدل العنيف لم يكن صادرا فقط عن نفر من الأقباط ذوى النوايا الحسنة ، وإنما دخلت فيه وأشعلت ناره جهات أخرى استطاع الاحتلال الانجليزى تجنيدها لإثارة الفتنة ، وكان أهمها صحيفتى « مصر » ، و « الوطن » اللتين كثفتا هجومها على الحزب الوطنى ، والزعيم محمد فريد ، وطالبتا بنفيه هو والشيخ عبد العزيز جاويش من مصر .

وعندما زار تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة حينذاك مصر عام ١٩١٠ ألقى محاضرة أشار فيها إلى مقتل بطرس غالى رئيس الوزراء محاولا إثارة النعرة الطائفية ، ثم تطرق فى محاضرته إلى الحديث عن الأمم التى تطالب بالدستور وهى لاتزال فى دور التكوين ، وقال : « إن مثل هذه الأمم تكون خطرا على نفسها لأنها لم تُنَمِّ فيها الصفات التى تمكنها من الانتفاع بالدستور ، وإن الأمر الجوهرى ليس هو الإسراع للحصول على سلطة ليس أسهل من سوء استعمالها ، وإنما هوترقية الصفات التى يسمو بها الفرد والأمة ترقية دائمة وان تكن بطيئة »(٣) .

---

(١) طارق البشرى ــ المرجع السابق ص ٦٠ .
(٢) رمزى تادرس ــ الأقباط فى القرن العشرين ــ الجزء الثانى ص ٧ .
(٣) أحمد شفيق ــ مذكراتى فى نصف قرن ــ الجزء الثانى ص ٢١٢ .

وتلقفت صحيفة « مصر » القبطية بالترحاب خطاب روزفلت الذى أهان فيه مصر ، ووصفها بأنها دولة فى دور التكوين ، وتناسى تاريخها العريق ، واستكثر عليها أن يكون لها دستور . لقد وصفت صحيفة « مصر » خطاب روزفلت بقولها « لم يُدوِّ فى جو مصر خطاب أبلغ من الخطاب الذى ألقاه جناب المستر روزفلت .. ولا أصرح منه عبارة ، ولا أنفع لها فى الحال والاستقبال ، وقد قوبل من جميع الطبقات بالإعجاب التام[1] .

و لم تكتف صحيفة « مصر » بهذا ، بل خلعت تماما برقع الحياء ، وطالبت الأقباط بالثورة على الضيم الذى يلحق بهم ، وقالت « وإن لم تنجحوا فعليكم بالدول الأوروبية ناصرة الانسانية وأولهم الدولة الانجليزية » !

وتجسمت العمالة فى شخص اخنوخ فانوس زعيم الطائفة الانجيلية الذى تلقّى تعليمه فى المدرسة الانجيلية بأسيوط ، وأكمله فى الجامعة الأمريكية فى بيروت . لقد عمل اخنوخ فى تلك الفترة على تكوين حزب سياسى أسماه « الحزب المصرى » — وكان هدفه — كما صرح — الحصول على استقلال مصر عن طريق الصداقة المصرية الانجليزية . وكان يرى إشراك الأجانب المقيمين فى مصر فى البرلمان الذى يتكون غداة الاستقلال .

وأمام هذا التجاوز ، ثارت ثائرة بعض الكتاب المسلمين ، أبرزهم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى تبرأ الحزب الوطنى من كتاباته التى تجاوزت حدّ الاعتدال . ويصف الأستاذ طارق البشرى تلك الفترة من الأزمة قائلا « لقد غلبت كفة العقلاء من الفريقين ، فكانوا يهاجمون أى تمادٍ فى الشقاق ويحذرون منه .. وكان ضغط الرأى العام المصرى على كلا الجانبين يفرغ مايراد اصطناعه من أزمات بينهم .. وباستثناء بعض الكتابات التى تمادت فى تزكية الخلاف كان الطابع العام فى الجدل هو طابع العتاب والمجاملة .. ولم يعرف من أحد طعن فى الدين ذاته أو تعرض له بما يمس التوقير اللازم له » .

وأنصع دليل على رفض جموع الأقباط للعمالة هو ماجاء من المواطن « سالم سيدهم تادرس » حين كتب فى جريدة « التايمز المصرى » فى سبتمبر

---

(١) طارق البشرى — المرجع السابق ص ٥٧ .

١٩٠٨ يتهم اخنوخ فانوس بالخيانة ويخاطبه قائلاً : « لقد أصبحت الشخص الذى إذا مرّ فى الطريق قلنا : هذا أحد صنائع الانجليز فى مصر ، والآلة التى تحركها جريدة المقطم . اتق الله أيها المجتهد فى الباطل » . ثم يقول « إن انجلترا تستخدم الخونة الذين لاضمير لهم لقتل الروح الوطنية ، والهجوم على أقوى حزب مصرى قام إلى الآن وهو الحزب الوطنى » ، كما كان ويصا واصف ، ومرقص حنا من كبار اعلام الأقباط الذين وقفوا بإصرار ضد ذلك الشقاق .

وقد دعا لطفى السيد إلى احتفال بعيد الهجرة النبوية فى يناير عام ١٩١٠ فى ذروة الجدل المحتدم بين عناصر من طرفى الأمة ، وحضر الاحتفال مرقص حنا ، ووقف خطيبا ليقول : « إن السنة الهجرية سنة المصريين جميعا ، تحتفل بها الشبيبة الإسلامية والشبيبة المسيحية ، لأنه احتفال لدين شريف ، مبدؤه أن محبة الوطن من الايمان .. وعلى هذا المبدأ أقول أننى مسلم ومسلم .. مهما قيل ويقال عن تقاطعنا وتدابرنا فنحن إخوان فى الوطنية .. إذا حدث خلاف بين مصريين ومصريين فلا يعد ذلك دليلا على عدم وجود اخاء ، وإنما هو من مستلزمات الحياة » ، وقد أغاظ هذا الكلام صحيفة « الوطن » فشنت على مرقص هجوما حادا وأسمته « يهوذا الأسخريوطى »(١) .

وفى عام ذروة الشقاق هذا (١٩١٠) نبتت بين بعض الأقباط فكرة الدعوة إلى مؤتمر قبطى لتدارس مايشكو منه الأقباط من ظلم وعدم مساواة فى الوظائف الحكومية .. إلخ ، وعندما اغتيل رئيس الوزراء بطرس غالى كسبت تلك الدعوة زخماً كبيرا فانعقد المؤتمر فى عام ١٩١١ . ورغم أن فكرة المؤتمر بدت لرجال الأحزاب الوطنية على اختلافها أمرا مريبا يحركه الانجليز لتأجيج نار الأحداث الطائفية التى وقعت فى عام ١٩١٠ ، وكان رأى جميع تلك الأحزاب أن المصلحة الوطنية تقتضى عدم عقد المؤتمر — رغم هذا فإن تلك الأحزاب وفى مقدمتها الحزب الوطنى عدلت عن معارضتها لعقد المؤتمر عندما رأت أن الحكومة تضغط على الأقباط لمنع عقد المؤتمر ، أو لتغيير مكانه فى أسيوط . وانبرت الأحزاب للدفاع عن حق الأقباط فى الاجتماع والتعبير عن رأيهم باعتبارهم مواطنين .

---

(١) محمد سيد الكيلانى — الأدب القبطى ص ٨٦ ، ١٢٩ .

ويعلق الأستاذ طارق البشرى على الموقف بقوله « بهذا الوعى والنضج السياسى عولج الأمر ، ولا شك أن ذلك ترك أثره على المؤتمر نفسه ، فقد وجد المؤتمرون أنفسهم الحماية لحقهم من معارضيهم ، ووجدوا أن اجتماعهم يرجع بعض الفضل فى تحقيقه إلى المعارضين لهم فى فكرة المؤتمر ذاتها ، وبهذا فرضت وحدة الحركة الوطنية نفسها على المؤتمر » ، وهدأت النفوس الثائرة ، وعادت لهم ثقتهم فى مواطنيهم المسلمين ، وانهزم التيار المتطرف أمام جموع العقلاء داخل المؤتمر وخارجه .

ولنا وقفة هنا نستخلص فيها دلالتين هامتين مما جرى حول ذلك المؤتمر . الأولى أن جميع الأحزاب السياسية فى مصر ــ حتى تلك التى كانت تؤمن بفكرة الجامعة الإسلامية ــ كانت تؤمن فى نفس الوقت بأن أقباط مصر مواطنون كاملو الوطنية كالمصريين المسلمين سواء بسواء ، ولهذا فإن حقهم فى الاجتماع والتعبير عن رأيهم ــ مهما كان ــ حق أصيل . الدلالة الثانية أن النضج السياسى فى مصر فى تلك السنوات المبكرة من القرن العشرين (وقبل وجود دستور) قد بلغ أوجه ، إذ كان الجميع يؤمنون بحق الاجتماع والتعبير عن الرأى . وأن هذا الحق يعلو على أى اعتبار آخر ، وربما كان أنصار فكرة عقد المؤتمر قد رأوا أن الحوار الحرّ الذى يكشف عما فى الصدور ، وعما فى العقول ، هو أنجح وسيلة لاكتشاف جذور الخلاف ، والقضاء على الفتنة ، وهذا ماتم فعلا .

لقد كان انعقاد ذلك المؤتمر بملابساته ، وبما دار فيه لطمة شديدة لخطاب تيودور روزفلت الذى اتهم فيه المصريين بعدم النضج ،وبعدم تأهلهم لأن يكون لهم دستور . فلقد أثبت له المصريون ــ بعد شهور قليلة من خطابه ــ أن وعيهم السياسى سبق الدستور ، وانهم حققوا مالم يتحقق فى وجود الدستور .. !

كان أول الخطباء فى المؤتمر القبطى الذى عقد فى أسيوط فى عام ١٩١١ ميخائيل فانوس المحامى بالفيوم ، فتكلم عن توثيق عرى المحبة بين المسلمين والأقباط وقال : « تختلف مصر عن باقى الأمم المتكونة من عناصر مختلفة الأديان بأن هذه شعوبها من أصول متباعدة ، ولها معتقدات وعادات متباينة ، أما مصر

فشعب أصله واحد من سلالة واحدة من آلاف السنين .. ومن الظلم تسمية المصريين بأنهم عنصران ، فليست العقائد هى التى عليها الأساس ، بل الجنسية » ..

وتكلم فى المؤتمر توفيق دوس مطالبا اسناد الوظائف للأكفاء المصريين بلا تمييز بين عنصر وآخر ، وعارض بشدة تولى الوظائف الحكومية على أساس النسبة العددية لعنصرى الأمة .. ثم عدّد أسماء الأقباط الذين تولوا مناصب عليا فى عهد محمد على حتى عهد الخديوى اسماعيل ، وقال إنه لم يحدث التمييز ضد الأقباط فى تلك الوظائف العليا إلاّ بعد الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ .

وهكذا فضح ذلك الوطنى الكبير المؤامرة الخبيثة التى كان ينفذها الانجليز فى مصر بأيدى حكومات مصرية عميلة ، فلقد كان الانجليز يوصون الوزراء المصريين — عن طريق المستشارين الانجليز فى الوزارات — بالتحيز ضد الأقباط عند التعيين فى الوظائف العليا كى تقع الفتنة حين ينسب هذا التحيز إلى الحكومة المسلمة . وقد أثبت المستشار طارق البشرى فى كتابه القيّم « المسلمون والأقباط » تلك المؤامرة وأورد فى ذلك العديد من الوقائع بالأسماء والاحصائيات .

وفى المقابل أثبت أن جماهير المسلمين من الشعب المصرى لم تعرف ذلك التحيز ، وذكر ماورد فى تقرير اللجنة التحضيرية للمؤتمر المصرى « الإسلامى » الذى عقد فى ٢٩ أبريل عام ١٩١١ ردا على المؤتمر القبطى فى أسيوط . فقد جاء فى ذلك التقرير بالنسبة للتمثيل فى المجالس النيابية فى تلك الفترة أن قبطيا أُنتخب فى مركز قليوب ضد أحد كبار الأعيان المسلمين وهو وكيل مجلس شورى القوانين . وانتخب قبطى بمركز « السلطة » وكل ناخبيه مسلمون . وانتخب قبطى بمركز الصف والناخبون ٤٠ منهم أربعة فقط من القبط (كان الناخبون بموجب قانون تلك المجالس هم العمد ومشايخ البلد فقط) . وانتخب قبطى بمركز بنى مزار والناخبون ٥٠ منهم ٥ فقط من القبط . وانتخب قبطى بمركز الفشن والناخبون ٣٦ منهم أربعة فقط من القبط . وانتخب قبطى بمركز ديروط والناخبون ٥٨ منهم ٥ من القبط .

وانتخب قبطى بمركز أبو تيج والناخبون ٣٧ منهم ٦ من القبط . وانتخب بالجمعية العمومية نائب قبطى من نائبين اثنين لمديرية المنيا (٢٧٣ ناخبامنهم ٢٤ قبطى)[1] .

وقد علّق الدكتور محمد حسين على النزاع الطائفى وما دار فى المؤتمرين القبطى والمسلم بقوله : « لم تكن هذه المحنة شرا خالصا .. ، فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حدا لسوء الظن المتبادل بين الفريقين ، وكانت تنفيسا شفا النفوس ، وفرصة لتصفية مابين الأخوين من خصومة ، وعلاجها بطريقة صحيحة ، واعتذر كل منهما لصاحبه على كل حال .. ، لذلك نستطيع أن نقول ان هذا الشر المستطير كان نقطة البداية فى خير عميم .

وإذا كان من الحق أن هذه الخصومة كانت قمة العنف فى النزاع الذى ينذر بتصدع الجامعة المصرية ، فمن الحق إنها كانت فى نفس الوقت الميلاد الحقيقى لفكرة الوطنية المصرية[2] .

□ ★ □

(١) طارق البشرى ــ المرجع السابق ص ٨٨ .
(٢) د. محمد حسين ــ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ص ١١٩ ــ ١٢٠ .

أمجاد الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩

جاءت أحداث ثورة ١٩١٩ فقضت على أى أمل لدى الانجليز فى خلق كيانات سياسية طائفية فى مصر . وتكوّن الوفد المصرى بجميع مستوياته من المسلمين والأقباط . واختلطت دماء العنصرين على حراب جنود الانجليز فكرّست الوحدة الوطنية ، وقضت بالفشل على أية محاولة أجنبية فى المستقبل للتدخل في شئون مصر بدعوى حماية الأقليات . وبقيت الخلافات الطائفية محصورة فى حجمها المحدود ، وفى إطار الوحدة الوطنية الكفيلة بالقضاء على أى خلاف بين المواطن وأخيه على أساس من القانون الذى يسوى بين الجميع . وأيضا على أساس روح المحبة والتسامح التى كفلها الإسلام والمسيحية . وأخيرا على أساس التاريخ الطويل المشترك ، والجوار السمح الكريم ، ووحدة المعاناة ، ثم وحدة الأمل فى مستقبل أفضل .

والحق أن الأمثلة كثيرة للمواقف الرائعة لأقباط مصر ومسلميها ، خلال تلك الثورة الوطنية ، نذكر منها :

● كان القمص مرقص سرجيوس من أشد المتعصبين لطائفته ، وكان لايمل الحديث عن ظلامات الأقباط ، ولكن عندما قامت الثورة ، كان هو والشيخان مصطفى القاياتى ومحمود أبو العيون من أخطب من عرفتهم المنابر حضا على جهاد الانجليز ، وسعيا إلى توثيق عرى الترابط بين المصريين . وقف سرجيوس على منبر الأزهر يوما يقول : « إذا كان الانجليز يتمسكون ببقائهم فى مصر بحجة حماية الأقباط فأقول : ليمت الأقباط ، وليحيا المسلمون أحراراً ..

● كان قرياقس ميخائيل مراسلا فى الأسكندرية لصحيفة « الوطن » المعادية للثورة ، والمثيرة للأحقاد الطائفية ، وكان قد سافر قبل الثورة إلى

لندن حيث أنشأ مكتبا للدعاية والاعلان للدفاع عن مطالب الأقباط وعن مؤتمر عام ١٩١٠ . ولكن ما إن قامت الثورة حتى تحول موقفه بشدة ، وأصبح مدافعا هصورا فى لندن عن الثورة ورجال الوفد المصرى . وظل يكشف مساوىء الحكم البريطانى فى مصر ، ويستغل فى ذلك كل صلاته وعلاقاته بالانجليز ، ويصدر « النشرة المصرية » يدافع فيها عن قضية الاستقلال . ويغشى مجلس العموم يقابل من يعرف من أعضائه . ويخطب فى الاجتماعات وتجمعات العمال داعيا لقضية مصر ، ومصححا لما يذاع عنها من أخبار مدسوسة . ولما ضاقت به الحكومة الانجليزية قبضت عليه فى ديسمبر ١٩١٩ وأودعته السجن أياما ، ثم رحلته إلى مصر حيث استقبله بنوها من المسلمين والأقباط بالحفاوة الجدير بها .

● وجريدة « مصر » التى يصدرها تادرس شنودة المنقبادى ، والتى قامت من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١١ بأعنف إثارة للفرقة بين القبط والمسلمين ، أصبحت فى عام ١٩١٩ من منابر الوفد المصرى .والحركة الوطنية .

● وسينوت حنا ، أحد خطباء المؤتمر القبطى فى عام ١٩١١ ، أصبح عضوا لامعا فى الوفد المصرى ، ومدافعا مجيدا عن وحدة الهلال والصليب . وقد اشتهرت مقالاته فى جريدة مصر تحت شعار « الوطنية ديننا ، والاستقلال حياتنا » .

● وعندما لاحظ الشيخ مصطفى القاياتى أن التفرقة الطائفية تحاول الاطلال برأسها فى عام ١٩٢٢ بمناسبة وضع الدستور ، خطب فى جمهور حاشد من الأقباط فى الكنيسة البطرسية وقال : « إذا كان الاستقلال سيؤدى إلى فصم عرى الاتحاد ، فلعنة الله على الاستقلال » .

تلك صفحات مضيئة سطرها رجال عظماء من أقباط مصر ومسلميها . القبطى يعلن التضحية بحياته فى سبيل استقلال مصر . والمسلم لايقبل ذلك الاستقلال إذا كان يؤدى إلى فصم العرى مع إخوانه الأقباط .

ويذكر الأستاذ فخرى عبد النور فى مذكراته أن أبرز خطباء ثورة ١٩١٩

فى الأزهر ، والمساجد الكبرى فى القاهرة والمدن والقرى ، كانوا علماء الإسلام والفساوسة . وكان القساوسة يرأسون بعض الاجتماعات الوطنية التى تقام فى المساجد ، كما كان العلماء المسلمون يرأسون بعض الاجتماعات فى الكنائس ، وكان الخطباء بالكنائس فى الأعياد القبطية من المسلمين ، كما كان الخطباء بالمساجد فى الأعياد الإسلامية من الأقباط . وهذا المظهر كان أبرز كسب للحركة الوطنية المصرية وهى لم تزل بعد تخطو خطواتها الأولى ، ولقد حققت به ما عجزت الحركة الهندية عن تحقيق مثله[1] .

كتب مراسل صحيفة « البتى باريزيان » الفرنسية فى القاهرة يقول « إن المسلمين والأقباط التفوا حول سعد الفلاح ، سعد المسلم الذى كان أجداده لاشك من المسيحيين ، وهكذا تم اتحاد الصليب بالهلال مما لا نظير له فى أى بلد إسلامى آخر »[2] .

وقد دفع هذا التماسك الفريد بين أقباط مصر ومسلميها فى ثورة ١٩١٩ المفكرين إلى بحث أسبابه ، فردّه بعضهم إلى التكوين التاريخى للمصريين ، وقوة تآلفهم عبر القرون ، وارجعوا هذا إلى اعتبار المصريين جنسا يستمد وحدته وملكاته من قانون الوراثة . وفى هذا يقول « ويصا واصف » : « لا يوجد شيء فى دائرة الاسلام الواسعة يمنع من التطور الوطنى والجنسى فى دوائر أصغر .. ، ويوجد بجانب المسألة الدينية مسألة الجنس والوراثة التى هى عامل فى تطور الشعوب لا يقل أهمية عن عامل الدين »[3] .

وعندما دفع الانجليز يوسف وهبة باشا أحد الوزراء الأقباط فى وزارة محمد سعيد المستقيلة إلى رئاسة الوزارة الجديدة فى نوفمبر عام ١٩١٩ ، هبّ الوطنيون ـــ مسلمين ومسيحيين ـــ فى وجهه ، فقداعتبروا ذلك تآمرا على سعد زغلول والحركة الوطنية .

وتربص له شاب وألقى على سيارته قنبلتين فأخطأتاه ، وقبض على الشاب وهو يهتف « ليحيا الوطن » ، وتبين أنه طالب مسيحى اسمه « عريان

---

(١) مجلة المصور فى ٢١ مارس سنة ١٩٦٩ .
(٢) صحيفة « وادى النيل » ٢٣ أبريل سنة ١٩٢٢ .
(٣) طارق البشرى ـــ المرجع السابق ص ١٣٨ .

يوسف سعد » . وعجز المحققون عن إيجاد أية صلة بينه وبين محرضين مسلمين . وحكم على « عريان سعد » بالأشغال الشاقة عشر سنوات . وتبين فيما بعد أنه كان عضوا فى التنظيم السرى للوفد الذى يتزعمه عبد الرحمن فهمى ، وأنه تطوع لاغتيال يوسف وهبة حتى لايساء استخدام الحادث وتأويله إذا قام به مسلم .

مصر للمصريين :

قبل أن ننهى الحديث عن الدروس المستفادة من أحداث ثورة ١٩١٩ وعبرتها ، قد يكون من المفيد ثقافيا أن نتناول بالتحليل الشعار الذى ساد ثورة ١٩١٩ وهو « مصر للمصريين » . فلقد كان هذا الشعار من أبرز شعارات الثورة . وقد ظن بعض الإسلاميين المعاصرين أن ذلك الشعار صكّه المناهضون لدعوة الجامعة الإسلامية ،وأنه بهذا يناوىء الدين الإسلامى ويعمل على إخراجه من الساحة السياسية ليحل محله التوجه العلمانى الغربى الحديث . ولكن الحقيقة أن ذلك الشعار أقدم تاريخيا من ثورة ١٩١٩ ، وهو برىء من تهمة معاداة التوجه الإسلامى .

فلقد ترددت اصداء هذا الشعار منذ الثورة العرابية التى كان الوازع الدينى من دوافعها ، وسمة بارزة من سمات قادتها وانصارها . ونحن نلمس الحماس الدينى واضحا فى الخطب الثورية لأحمد عرابى وأعوانه . وهذا الشعار رُفع أولا فى وجه الأتراك والجراكسة المسيطرين على الجيش والادارة ، وفى وجه النفوذ الأوروبى الذى أخذ يتغلغل فى الحياة الاقتصادية والسياسية على عهد الخديوى اسماعيل ، ثم رفع فى وجه الاحتلال البريطانى للتحرر من التعبية الأجنبية ، وكان يعنى الدعوة إلى التخلص من الاحتلال الأجنبى من جهة ، والتخلص من الاستبداد الشرقى من جهة أخرى[١] .

□ ★ □

(١) طارق البشرى ـــ المرجع السابق ص ١٣٢ .

الأقباط ودستور ١٩٢٣

بعد أن صدر تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ بدأت لجنة وضع الدستور أعمالها . وثارت مسألة تمثيل الأقليات فى البرلمان ، وطالب بعض الأقباط داخل لجنة الدستور وخارجها بتحديد نسبة من مقاعد مجلس النواب للأقباط ، وأيدهم فى هذا بعض المسلمين إذ لم يكن هذا المطلب صادرا عن نزعة انفصالية أو طائفية ، وإنما كان نابعا من خشية الاّ تأتى الانتخابات العامة بنواب أقباط فيشعر بعضهم بأن ذلك مرجعه تعصب أغلبية الناخبين (وهم مسلمون) ضدهم ، فضلا عن أن هذا لو حدث سيعطى أعداء الوحدة الوطنية فرصة لاذكاء نار الخلاف بين عنصرى الأمة .

يؤيد هذا النظر أنه عندما اقترح الأستاذ محمود عزمى بأن تنتخب الأقلية ممثليها عارضه الأقباط أنفسهم ، وطالبوا بأن تجرى انتخابات النسبة المخصصة لمقاعد الأقباط بين المصريين عموما ، حتى يكون النائب القبطى ممثلا للأمة جميعا أقباطا ومسلمين مثل النائب المسلم تماما .

بل إن جماهير واسعة من الأقباط كانوا يعارضون مبدأ تمثيل الأقليات ذاته باعتباره مظهرا يجرح وحدة الأمة الوطنية والسياسية . ففى ثانى جلسات اللجنة الفرعية للدستور التى نوقش فيها تمثيل الأقليات وردت للجنة برقية من وديع صليب المحامى بالمنصورة يعلن فيها معارضة القبط ـــ قبل المسلمين ـــ لهذا المبدأ ، ورفضهم مايزيد عن الضمانات الشعبية العامة المكفولة لجميع المواطنين .

كما أعلن القمص بطرس عبد الملك رئيس المجلس الملى العام ورئيس الكنيسة المرقسية الكبرى أن تمثيل الأقليات هو من تطبيقات سياسة « فرق تسد » ، ولعن من يوقظ الفتنة النائمة وأبدى القمص باسليوس وكيل عام البطريركية تخوفه مما ينتج عن هذا التمثيل من عزلة للقبط . وأنكر الكثيرون

أن فى مصر أقليات ، لأن الأقليات توجد باعتبار اختلاف الجنس أو الموطن الجغرافى كالأرمن واليونان فى تركيا إذ تكون الفوارق جمة ، بينما لا يوجد فى مصر إلاّشعب من أصل واحد متجانس فى العادات والأخلاق والمزاج العام(١) .

وعندما طلب الشيخ محمد بخيت عضو لجنة الدستور النص فيه على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام ، رفع جميع أعضاء اللجنة من الأقباط أيديهم بالموافقة باعتبار أن هذا طبيعى وديمقراطى طالما أن أغلبية الأمة من المسلمين(٢) .

وعاد سعد زغلول من المنفى أثناء المعركة الانتخابية لأول مجلس نيابى فى ظل دستور ١٩٢٣ . وحاول حزب الأحرار الدستوريين وجريدة « الوطن » إثارة الطائفية نكاية فى حزب الوفد الذى رفع شعار الوحدة الوطنية . وكانت أول خطبة لسعد بعد عودته فى القاهرة يوم ١٩ سبتمبر عام ١٩٢٣ قال فيها « إن من يسمونهم أقباطا كانوا ولا يزالون أنصارا للنهضة المصرية الحديثة ، وقد ضحّوا كما ضحيتم .. ، وبينهم أفاضل كثيرون يمكن الاعتماد عليهم . فاحثوا التراب فى وجوه أولئك الدساسين الذين يفرقون بين مصريين ومصريين . إنه لا امتياز لواحد على آخر إلاّ بالاخلاص والكفاءة ، فيهم (أى وسط الأقباط) أجسامنا ، وفيهم من هو أفضل من كثير منا ، أقول هذا لأنى أقول الحق ، ويجب على زعيمكم أن يقول الحق » .

ومضى زعيم مصر يتحدث عن الأقباط قائلا : « لقد برهنوا فى مواطن كثيرة على إخلاص شديد وكفاءة نادرة ، وافتخر بأن اعتمد على كثير منهم . ذكلمتى ووصيتى فيكم أن تحافظوا على هذا الاتحاد المقدس ، وأن تعرفوا أن خصومكم يتميزون غيظا كلما وجدوا هذا الاتحاد متينا فيكم . ولولا وطنية فى الأقباط ، وإخلاص شديد ، لتقبلوا دعوة الأجنبى لحمايتهم ، وكانوا عندئذ يفوزون بالجاه والمناصب بدل النفى والسجن والاعتقال ، ولكنهم فضلوا أن

---

(١) طارق البشرى ـــ المرجع السابق ص ١٧٧ .

(٢) ماجد عطية ـــ جريدة « الشعب » المصرية بتاريخ ١٩٩٢/٦/٢٣ .

يكونوا مصريين معذبين محرومين من المناصب والجاه ، على أن يكونوا محميين بأعدائكم وأعدائهم[1] .

ولا شك أن قوة سعد زغلول ، وقدرته على قول الحقيقة فى وجه الجميع كان لها أثر قوى فى دعم الوحدة الوطنية . ولنتأمل وصفه للأقباط « إن أولئك الرجال فيهم من هو أفضل من كثير منا » . لاشك أن مثل هذا القول يشعل حماس زعماء الأقباط وجماهيرهم ، ويزيد إيمانهم بأن مواقفهم الوطنية وتضحياتهم فى سبيل الثورة كانت فى مكانها الصحيح . ولا شىء أذكى للحماس والاخلاص من الاعتراف لذوى الفضل بفضلهم .

وعلى نفس النّهج الوطني رفض سعد زغلول تقييد وزارته بنسبة محددة للوزراء الأقباط ، وأصرّ على أن الكفاءة وحدها هى المعيار ، وأنه يسعى إليها — فى وزارته — أينما وجدها سواء بين المسلمين أو الأقباط ، لا فرق . و فى فترة العمل بدستور ١٩٢٣ على امتدادها كان الوزراء الأقباط كثيرا مايتولون وزارات السيادة مثل الخارجية والمالية والحربية .

الاخوان المسلمون والأقباط :

أسس الشيخ حسن البنا جمعية الاخوان المسلمين فى مصر عام ١٩٢٨ . وسرعان مابرزت إلى الساحة الدينية والسياسية فى ثلاثينات هذا القرن . ثم انتشرت بعد ذلك انتشاراً واسعا فى مصر وغيرها من أقطار العالم العربى والاسلامى . ونظرا لأنها كانت أول جمعية دينية تجهر بأهداف سياسية ، فقد أحدثت ومازالت تحدث دويا فى الساحة الثقافية والسياسية .

وقد اكتسبت تلك الجمعية شهرتها وانشارها بفضل عبقرية مؤسسها الذى استطاع أن يعرض الاسلام فى إطار جديد ، وان يربى دعاة كبارا مازالوا يتصدرون ميدان الدعوة الاسلامية حتى الآن . وقد أهل تلك الجمعية للاستمرار وضوح فكرها وشموليته ، واحتفاؤها بجوهر الاسلام ومقاصده ، ومرونتها فى فروع الفقه ، والأخذ من الدين بايسره ، ومراعاة ظروف الواقع . ومازالت خطب الشيخ البنا وكتاباته هى المرجع الموثق لفكر الجماعة ،

---

(١) مجموعة خطب سعد زغلول ص ١٢ — ١٤ .

ومصدر أدبيات الاخوان حتى الآن .

يقول الشيخ البنا فى رسالته إلى الشباب ، عن موقف الاخوان المسلمين من الأقباط مايلى : « يخطىء من يظن أن الاخوان المسلمين دعاة تفريق عنصرى بين طبقات الأمة . فنحن نعلم أن الاسلام عنى أدق العناية باحترام الرابطة الانسانية العامة بين بنى الانسان .. كما أنه جاء لخير الناس جميعا ، ورحمة من الله للعالمين . ودين هذه مهمته أبعد الأديان عن تفريق القلوب وإيغار الصدور .. ، وقد حرّم الاسلام الاعتداء حتى فى حالات الغضب والخصومة ، وأوصى بالبر والاحسان بين المواطنين وإن اختلفت عقائدهم وأديانهم ، وأوجب إنصاف الذميين وحسن معاملتهم ، فلهم مالنا ، وعليهم ماعلينا . نعلم كل هذا فلا ندعو إلى تفرقة عنصرية ولا إلى عصبية طائفية » .

وقال الشيخ البنا فى رسالة « دعوتنا » : « وأحب أن أنبهك إلى سقوط الزعم القائل بأن الجرى على هذا المبدأ (هداية البشر بنور الإسلام) يمزق وحدة هذه الروابط بين الجميع ماداموا متعاونين على الخير » . وكتب فى « نحو النور » شارحا موقف القرآن الكريم من غير المسلمين فقال : « إنه لم يشتمل على حمايتهم فقط ، بل أوصى بالبر بهم والاحسان ، وقدس الوحدة الإسلامية ، ثم قدس الوحدة الدينية العامة ، وقضى على التعصب ، وفرض على أبنائه الايمان بالأديان السماوية جميعا .. هذا الاسلام الذى على المزاج المعتدل ، والانصاف البالغ ، لايمكن أن يكون اتباعه سببا فى تمزيق وحدة متصلة ، بل بالعكس انه أكسب هذه الوحدة منعة القداسة الدينية بعد أن كانت تستمد قوتها من نص مدنى فقط » .

□ ★ □

الفصل الخامس

هل الثقافة الإسلامية تراث للمسلمين فقط دون الأقبـــــاط ؟!

هل الثقافة الإسلامية تراث للمسلمين فقط دون الأقباط ؟

التراث بمفهومه الواسع أعم من الدين والتاريخ والأثر وإن كان يشملها . إنه جماع كل مايترسب فى الوجدان من عقيدة ، وأحداث تاريخية ، وأحداث شخصية مثيرة للانفعال . كما أنه يشمل العادات والتقاليد الاجتماعية . ونكاد نقول ان كل مايقرأه الانسان أو يسمعه أو يقع عليه بصره ويحرك مشاعره ، ويترسب فى وجدانه على امتداد حياته ، يعتبر تراثا .

إن الطفل القبطى جورج الذى يلهو مع أقرانه فى قرية بصعيد مصر ، لابد أن يترسب فى وجدانه هيئة عمه الشيخ أحمد عندما كان يمسح بيده على رأسه ويعطيه مصروفا فى عيد الفطر أسوة بما يفعل الشيخ مع ابنه محمد . ولابد أن يوم العيد الاسلامى هذا سيرسخ فى ذاكرته حيث يرتبط بخروجه مع أصدقائه محمد وعلى ومتياس فى نزهة على شاطىء النيل ، أو مغامرة عوم على صفحته .

ولن ينسى جورج مهما امتد به العمر صوت المؤذن وترانيم المنشد المنبعثة من مئذنة المسجد فى ليالى رمضان ، خصوصا عندما كان صوت المؤذن طبيعيا وليس زاعقا من فوهة ميكروفون هذه الأيام . كذلك لن ينسى محمد يوم ان كان صبيا غريرا يسبح فى النيل دون دراية فاوشك على الغرق ، واستغاث ، وإذا بعمه « ميلاد » يغيثه وينقذه .

وأبطال مصر الحديثة ، محمد على الكبير ، وابراهيم باشا بفتوحاته فى الشام وتركيا ، وأحمد عرابى بثورته ضد الخديوى المستبد والأجانب المستكبرين . وشعراء مصر العباقرة كشوقى وحافظ ، وشعرهم الرائع فى الغزل والوطنيات والاسلاميات ، وخطب مصطفى كامل ضد الاحتلال البريطانى ، كل هذا وغيره مما تعلمه جورج فى المدارس لابد أن يترسب فى وجدانه ويصبح تراثا ، تماما مثلما ترسب فى وجدان رفيق صباه محمد أحمد .

إن موّال أدهم الشرقاوى ، وسيرة الهلالية التى سمعها جورج من الشاعر الشعبى فى ساحة « الجرن » ، فى ليلة مقمرة لايمكن أن ينساها مهما اتسع علمه بعد ذلك ، وقرأ فى الأيديولوجيات والمذاهب السياسية . ورواية « وا إسلاماه » أو « عبقرية عمر » التى درسها فى الثانوية العامة لابد أن يعلق بذهنه منها الكثير . وإذا كان جورج قد درس فى صباه الباكر مع جاره محمد فى كُتّاب القرية ، فلابد أن تحتفظ ذاكرته ببعض آيات القرآن الكريم لاسيما تلك الآيات السهلة ، التى تخاطب الفطرة ، كقوله تعالى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ . وعندما يشب جورج عن الطوق فاغلب الظن أنه سيقارن معنى تلك الآية بما ورد فى الانجيل من الحث على التواضع والسلام والمحبة .

ولن ينسى جورج ومحمد يوم أن رأيا مع جمع غفير من أهل القرية عمهما اسحاق وهو يحمل جثة ابنته دميانة ـــ الشابّة الحسناء التى كانت تهفو إليها أفئدة شباب القرية ـــ بعد أن قتلها أبوها نزولا على تقاليد أهل الصعيد ، لأنها وقعت فى حب قوى مع شاب مسيحى دون علم أهلها . إن أمثال تلك الحوادث لابد أن تسهم فى بناء التكوين النفسى لكل من جورج ومحمد .

ومن الذكريات المشتركة لجورج ومحمد ، فى صباهما الباكر ، مرورهما يوميا فى طريقهما إلى المدرسة الابتدائية « بدير مواس » على المسجد بمئذنته السامقة ، وعلى دير الرهبان المختفى وراء أشجار كثيفة عالية ، وكم كانا يقفان أمام السور ليريا الرهبان وهم يخطرون كحمائم السلام بين الأشجار . إنهما بعد أن بعد بهما الزمان ، وبدأ المشيب يخط فوديهما مازالا يتذكران تلك الأيام عندما يجمعهما اللقاء كل حين .

ولا ينسيان ماحدث لجورج فى حرب عام ١٩٦٧ . فعندما دخلا الجيش حرصا على أن يكونا فى « وحدة » واحدة . وعند عودتهما المحزنة من خط القتال عند غزة فى الانسحاب الشهير ، أدركتهما طائرة إسرائيلية تهاجم فلول المنسحبين ، وأطلقت عليهما نارا أصابت جورج فى جبهته وصدره . وأيقن أنه هالك فطلب من محمد أن ينجو بنفسه فأبى ، وظلا يتعذبان فى الصحراء الحارقة إلى أن أدركتهما رحمة الله بأعرابى آواهما .

وكان الذى يعذب جورج أنه لم يُصب فى قتال والتحام مع العدو ، حتى تكون الندبة العميقة التى ظلت على جبهته وسام شرف ، وإنما أصيب خلال انسحاب . وكان محمد يواسيه قائلا انهما لم يفرا من معركة ، فهما لم يدخلا معركة أصلا . وكان انسحابهما تنفيذا لأمر من قائد أعلى . وكانا حريصين على القتال حتى النصر أو الشهادة ، ولكن هكذا شاء القدر . فلا تثريب عليهما ، وفى سبيل الله والوطن ماأصاب جورج .

لاشك أن الأحاسيس والمشاعر المختلطة ، والذكريات التى خلفها هذا الحادث هى بعينها ماترسب فى وجدان كل منهما ، وأضافت إلى تكوينهما النفسى بعدا جديدا واحدا .

ولا أظن أننى بهذا التصوير الرمزى قد شطح بى الخيال ، وجاوزت حدود الحقيقة — أعنى حقيقة العيش المشترك ، والكفاح المشترك ، بما يحوبانه من آلام وآمال . وأليست وحدة الألم والأمل هى أهم مكونات الوجدان الجمعى الذى يبنى الشعب الواحد ؟

أثر اللغة العربية فى وجدان المسلمين والمسيحيين :

منذ أن جعلت الكنيسة القبطية اللغة العربية لغة الصلاة والمواعظ ، وكذلك الكنائس المسيحية الأخرى فى أرجاء العالم العربى — أصبحت اللغة العربية هى اللغة القومية لمسيحيى مصر والعالم العربى . وأقبل نوابغ المسيحيين على تلك اللغة ينهلون منها حتى عشقوها وأبدعوا فيها . وظهر فى العالم العربى شعراء فحول من المسيحيين مثل بشارة الخورى ، وجورج شرادق ، وخليل مطران أضفوا على الشعر العربى آيات من الرقة والجمال . وحتى الشعراء المسيحيين الذين هاجروا من الشام إلى أمريكا ، ظلوا فى مهجرهم يشدون بالشعر العربى ، وكم تغنينا فى مصر ببدائع إيليا أبو ماضى ومعاصريه .

على أن اللغة العربية لم تكن بالنسبة للمسيحيين لغة تخاطب وشعر

فحسب ، فاللغة ــ أية لغة ــ هى وعاء الثقافة والتراث . ولهذا كان المثقفون المسيحيون فى كافة الأقطار العربية من أقطاب حركة القومية العربية التى ازدهرت منذ ثلاثينات هذا القرن فى مواجهة الاحتلال الأجنبى أولا ، والتوجه الغربى (أو التغريب) ثانيا .

ولكن إذا كانت القومية العربية قد غدت عقيدة وطنية أو سياسية لجمهرة المسيحيين العرب ، فماذا عن الإسلام بالنسبة لهم ؟ إن الواقع يدل بوضوح على أن الاسلام فى جملته أصبح ثقافة قومية وتراثا للمسيحيين العرب ومنهم أقباط مصر جميعا ، سواء من اعترف منهم بذلك أو من أنكره لأسباب مختلفة . ولما كانت الثقافة الرفيعة تكسب صاحبها قوة الاعتراف بالحقيقة ، وتنأى به عن التعصب الطائفى الذى لامبرر له ، فقد كان المفكرون والساسة العرب من المسيحيين لايجدون أدنى حرج فى الاعتراف بالحيز الواسع الذى يحتله الاسلام فى عقلهم ووجدانهم ، بل وفى توجههم السياسى . وقد بلور هذه الحقيقة الزعيم السياسى المصرى مكرم عبيد فى قولته المشهورة « أنا قبطى دينا ، ومسلم وطنا » . لقد جعل الاسلام عقيدة وطنية . وقد رأينا فيما سبق أن قدمنا ــ وفيما سيأتى فى هذا الكتاب ــ أن هذه الكلمة ليست قاصرة على مكرم عبيد ، وإنما أعلنها كثيرون قبله وبعده .

فالمسيحيون العرب عموما الذين اشتغلوا بالفكر والعمل السياسى ، وجدوا فى الاسلام ــ بالإضافة إلى كونه ثقافة وتراثا مشتركا ــ وعاءً لفلسفة شاملة ، ومصدرا لدوافع التحرر والانعتاق من الحكم المستبد ، ورأوا فى تعليماته الشاملة قاعدة راسخة للنهوض الاجتماعى والحضارى عموما . لقد أدركوا ــ بعد دراسة ــ أنه دين سماوى لم يقتصر على العقيدة الإلهية والعبادات ، بل وجدوا فيه مشروعا حضاريا يلائم الشرق العربى تماما .

ميشيل عفلق والإسلام :

يتحدث الدكتور محمد جابر الأنصارى فى كتابه « تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى » عن فكر ميشيل عفلق مؤسس وزعيم حزب « البعث العربى الاشتراكى » ــ أكبر حزب سياسى ظهر على الساحة العربية منذ ثلاثينات هذا القرن حتى الآن ــ فيقول : « لقد اكتشف ميشيل

عفلق منذ أن خرج من تحت تأثير الفكر الماركسى عام ١٩٣٦ أن هناك علاقة خاصة وفريدة واستثنائية بين الإسلام والعروبة ، وأنه لم ترتبط قومية بدين كما ارتبطت القومية العربية بالإسلام الذى مثل عبقرية الأمة ، وانسجم مع طبيعتها .

ويمضى الدكتور الأنصارى قائلا : « إن ماكتبه ميشيل عفلق عام ١٩٤٣ بمناسبة الاحتفال « بذكرى الرسول العربى » واضح الدلالة على هذا الموقف إذ يقول : « إن حركة الاسلام ليست بالنسبة للعرب حادثا تاريخيا فحسب ، تُفسر بالزمان والمكان ، وبالأسباب والنتائج ، بل إنها لعمقها وعنفها واتساعها ترتبط ارتباطا مباشرا بحياة العرب المطلقة . أى أنها صورة صادقة ورمز كامل خالد لطبيعة النفس العربية وممكناتها الغنية واتجاهها الأصيل .. فالإسلام هو الهزة الحيوية التى تحرك كامن القوى فى الأمة العربية فتجيش بالحياة الحارة .. مُرجعة اتصالها مرة جديدة بمعانى الكون العميقة » .

أليس هذا التقرير الصادر من فيلسوف وسياسى مسيحى هو ميشيل عفلق تأكيدا وتفسيرا لمقولة السياسى الكبير مكرم عبيد « أنا قبطى دينا ، ومسلم وطنا » ؟! .

ويقول الدكتور الأنصارى : « .. غير أن البعث (الحزب) عبر مسيرة التجربة الطويلة ــ خارج الحكم وفى الحكم ــ مرّ بمراحل فكرية ، ومناخات نفسية ، بعضها قريب من الماركسية أو « الاشتراكية العلمية » ، وبعضها قريب من العلمانية ، وبعضها الآخر اقترب إلى منطلقه الأصلى فى الدمج بين العروبة والإسلام . فأى حالة وأى مرحلة كانت الأقرب والأصدق تعبيرا عن المنطلق الفكرى الأساسى (لحزب البعث) ؟

ويجيب الدكتور الأنصارى على تساؤله قائلاً : « ربما اسعفتنا فى الاجابة على هذا السؤال الدقيق وقفة فكرية استرجاعية وقفها ميشيل عفلق فى نهاية المطاف فى عام ١٩٧٦ من موقفه الأول فى مطلع الأربعينات ، فإذا هو يجد نفسه أكثر تصميما على رفض الفكرة العلمانية القاطعة ، وأكثر اقترابا من روح الإسلام العربى أو العروبة المسلمة ، وأكثر ابتعاداً عن المفهوم الأوروبى للقومية والتفسير الماركسى للدين ، وأكثر الحاحا على دعوة المسيحيين العرب للاقتراب

الحميم من الإسلام فى سبيل تأكيد صدق عروبتهم ذاتها .

قال ميشيل عفلق من منطلق الموقف الفكرى الأول بعد ان اندمجت فيه تجربة ثلث قرن من الصيرورة العربية ، سلبا وإيجابا ، تقدما وتراجعا ـــ قال : « قراءة للتراث تعطى للثورات فى العالم ، ولثورات هذا العصر ، بما فيه الثورة العربية ، نسبية معينة ، لأنها جميعا ثورات بشرية بحدود طاقة الانسان مهما بلغت هذه الطاقة . وتجربة الأمة العربية من خلال الإسلام فيها شىء مطلق ، فى حين أن كل شىء آخر نسبى قد يعيش عشر سنوات أو مائة سنة ولكن ليس فيه صفة الخلود » .

ويفسر الدكتور الأنصارى تلك العبارات لميشيل عفلق فيقول : « إذن فالرسالة العربية الخالدة ـــ من منظور ميشيل عفلق ـــ ماهى إلاّ ذلك المطلق الإسلامى الذى يدفع العروبة فوق ماهو نسبى من قوميات وفلسفات أخرى ، ويمنحها ـــ وحدها ـــ صفة التفرد وامتداد اللانهائىّ . وتمسكا بهذا المطلق الاسلامى المثالى المميز للعروبة رفض عفلق المفاهيم النسبية التجريبية المتسخرجة من تجارب القوميات الغربية ، وعلى الأخص مفهوم العلمانية المتجذر فى التراث الأوروبى من ثنائية الكنيسة والدولة ـــ والذى من شأنه أن يفقد العروبة خصوصيتها المطلقة إذا فُصلت عن الاسلام .

ثم يعود الدكتور الأنصارى إلى نص كلام ميشيل عفلق حيث يقول : « فى بداية تجربتنا (فى حزب البعث) كانت هناك دعوات واتجاهات قومية تقول بالعلمانية ، وتعتبر القومى العربى هو الذى يتجرد من معتقداته الدينية ، ويلتقى مع أخيه العربى على صعيد القومية العربية الحقوقية ، والرابطة الوطنية . وكان لهذا المذهب رواج كبير بين الشبيبة المثقفة . ولكننا لم نستسغه ، ولم ننخدع به ، واعتبرناه فى أحسن الحالات تفسيرا سطحيا وجامدا غير معبر عن الروابط العميقة التى تربط العربى بقوميته . وكان من الجائز الاشتباه فى هذه الدعوة (العلمانية) لأن المستعمر الأجنبى الغربى الذى كان يحتل أقطارنا ، لم يكن يخفى ارتياحه لهذه العلمانية ، بل كان يشجعها ، لأن ذلك كان يؤدى إلى إفقار قوميتنا من دمها ، ومن نسغ الحياة فيها ،

ومن أصالتها وروحها . لذلك كان من أول ما تصدينا له هو هذه القومية المجردة » .

« وأذكركم — مازال الكلام لميشيل عفلق — ببعض الكلمات التى كانت تشير إلى ذلك ، فهناك إشارة فى كراس « ذكرى الرسول » إلى القومية التى تأتينا من الغرب على النمط الأوروبى ، وتشير إلى الفارق بين قوميتنا وبين القوميات الغربية ، وإلى أن الإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولتنا ، وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون . واشارات كثيرة أخرى لنا (فى هذا الموضوع) يصعب حصرها وتعدادها . فما الذى يضطرنا ، لكى نكون قوميين سليمى الانتماء ، أن نطرح كل هذا من حياتنا ونضعه على الهامش . إذا نحن نظرنا إلى واقعنا الحىّ نجد فيه تلك العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام » .

ويستمر مؤسس حزب البعث وفيلسوفه المسيحى فى طرح فكره عن العلاقة العضوية بين الإسلام والعروبة فيقول : « ولكننا وضعنا الأمور فى نصابها عندما وضعنا الإسلام — كثورة أخلاقية وفكرية واجتماعية حاسمة فى تاريخ البشر — فى صلب القومية العربية . بهذا المعنى لايوجد عربى غير مسلم . هذا إذا كان العربى صادق العروبة ، متجردا من الأهواء والمصالح الذاتية . العروبة تعنى الإسلام بهذا المعنى الرفيع .. » .

ويعرب ميشيل عفلق عن ارتياحه لأن عددا من رجال الدين المسيحى — فى لبنان خاصة — قد توصلوا مؤخرا إلى الاقتناع بتلك الحقيقة ، ويقول : « إن جميع المسيحيين فى هذا الشرق العربى إذا لم يقبلوا عن طوع وإرادة واقتناع ومحبة بأن يكونوا بمعنى من المعانى مسلمين ، فإنهم لايكونون أمناء لفكرهم ووطنهم وعروبتهم » . ويضيف « هذا ماقلناه قبل ثلاثة وثلاثين عاما فى سنة ١٩٤٣ بأن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم ، سوف يعرفون أن الاسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ، ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شىء فى عروبتهم .. وتطور الأحداث خلال ثلاثين عاما أوصل إلى هذه النتائج عند البعض ، وهى بدايات لاشك انها ستكون لها تتمة ، فإذن لم يكن لنظرة كنظرتنا أن تأخذ بخرافة العلمانية وسطحيتها ، وإن كنا لانجادل فى الحدود والتطبيقات القانونية والدستورية لما يُفهم من العلمانية .

ولكن العلمانية بمعنى إهمال وبتر أهم شيء فى قوميتنا وفى تاريخنا وتكويننا النفسي والعقلى فأمر غير مقبول وغير واقعى » .

وميشيل عفلق يفرق هنا بين مفهومين مختلفين للعلمانية ، فهو يرفض العلمانية الفكرية الواردة من أوروبا والتى تفرق بين الدين والدولة وتباعد بينهما تماما . ويقبل العلمانية بمفهومها الدستورى والقانونى حين تسوى بين جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات ، وتصفّهم فى صف واحد أمام القانون مهما اختلفت دياناتهم وأعراقهم ومذاهبهم[1] .

وقد توصل المفكر المسيحى قسطنطين زريق إلى نفس النتيجة التى استقر عليها فكر ميشيل عفلق إزاء الاسلام ، فيركز قسطنطين زريق فى كتابه « الوعى القومى » على أهمّية « أن تكون لنا عقيدة قومية دافعة إلى العمل المنظم ، ومستمدة من فلسفة قومية أشمل . أما مصدر هذه الفلسفة المتضمنة لروح المسئولية الجماعية ، الحافظة لنسيج المجتمع فليس سوى الاسلام[2] .

وأخيرا يعترف الأستاذ أنور عبد الملك المفكر المصرى المسيحى الماركسى ــ بأهمية الاسلام فى الحركة السياسية العربية ، ويدعو إلى التحالف مع تيار الاسلام السياسى حين يقول : « من المستحيل أن ينجح شخص يسعه ولو للحظة واحدة أن يستبعد الاسلام السياسى المعاصر . وهل من حاجة إلى أن نشير إلى أن الاسلام السياسى هو فلسفة الأخوة ، ومفهوم المساواة بين كل الجماعات الانسانية ويوجه خاص أهل الكتاب أتباع الديانات التوحيدية الثلاث .. إن الاسلام السياسى ، ومنذ أكتوبر عام ١٩١٧ هو حليف كل القوى الاشتراكية فى العالم » .

فكتور سحاب :

فى كتاب من يحمى المسيحيين العرب ؟ « يقول مؤلفه فكتور سحاب المفكر المسيحى اللبنانى ، انه لابد من إزالة الالتباس بين الاسلام الدين والاسلام الحضارة .. ويوضح فكرته فى أن الاسلام الحضارة ملك للمسلمين والمسيحيين

---

(١) د. محمد جابر الأنصارى ــ تحوّلات الفكر والسياسة فى الشرق العربى ص ١٢٢ ــ ١٢٩ .
(٢) قسطنطين زريق ــ الوعى القومى ص ١١٢ ، ٢٠٧ طبعة ١٩٣٩ .

العرب على السواء ، ومهيمن على مشاعرهم ، فيقول : « أفلا يطرب العربى المسيحى ، مثل المسلم ، لبلاغة اللغة العربية ، وقوة الشعر العربى المسبوك بلغة القرآن ؟ أفلا تهزه الموسيقى العربية الغنائية المنحدرة من التجويد القرآنى ؟ أفلا تستهويه خطوط العمارة الاسلامية ؟ أفلا تعتمل فى صدره عواطف من نمط عربى لاشبيه لمثلها فى الغرب ؟ أفلا تحكم عقله مفاهيم اجتماعية وعائلية مماثلة لما يحكم عقل المسلم العربى[1] ؟ .

ثم يتجه المؤلف المسيحى المارونى إلى الاجابة عن سؤال « من يحمى المسيحيين العرب ؟ » فيقدم عرضا تاريخيا لعلاقة الدول الغربية بالمسيحيين العرب ، يبدأه بما فعلته بهم الدولة البيزنطية فيذكر أنه « فى مجزرة بيزنطية واحدة قتلت الدولة فى مصر مائتى ألف قبطى من أنصار الطبيعة الواحدة واليعاقبة .. ، وعندما فتح العرب مصر كان الأكليروس القبطى مختبئا برمته فى الصحارى هربا من التصفية » .

ويمضى فكتور سحاب قائلاً : « ولم يتوقف اضطهاد المسيحيين العرب (اضطهاد بيزنطة لليعاقبة ، واضطهاد اليعاقبة فى المقابل للخلقيدونيين) إلاّ عند ظهور الاسلام على البلاد ، وقيام معاوية على الحكم فى ولاية الشام قبيل إنشاء الخلافة الأموية .. وتروى التواريخ الكنسية والاسلامية العربية أن معاوية استقبل وفودا من الرهبان الخلقيدونيين ، جاءوا ليرتجعوا إليه أمر أديرتهم وبيعهم التى كان اليعاقبة يستولون عليها .. وان الوالى العربى أمر بإحصاء ممتلكات كل طائفة ، ومنع استيلاء أى طائفة على ممتلكات الأخرى حتى ساد السلام بينها » .

ويقول فكتور سحاب إن الدول الغربية المسيحية على اختلافها ، وطوال التاريخ ، لم تسع أبدا إلى حماية المسيحيين العرب ورعايتهم ، وإنما كانت كلما لاحت لها مصلحة سياسية استعمارية فى المشرق العربى تحاول استغلال المسيحيين العرب فى ضرب أوطانهم الاسلامية العربية ، فإذا اضطرت إلى الخروج من أقطار المشرق تركت المسيحيين العرب يجنون الثمار المرة لتعاونهم مع الغرب المسيحى .

---

(١) جريدة الشعب المصرية — ٢١ يوليو ١٩٩٢ — من عرض لكتاب فكتور سحاب .

ويقول أيضا : « ومهما يكن فإن التاريخ العربى فى طوله ، وفى مصادره الاسلامية والكنسية على السواء ، لايروى حادثة واحدة يمكن تشبيهها من قريب أو بعيد باضطهادات بيزنطية للمسيحيين اليعاقبة ، أو باضطهادات محاكم التفتيش الاسبانية للمسلمين أو العرب أو المستعربين فضلا عن اليهود ، فلقد تمتعت المذاهب المسيحية العربية على اختلافها ، بعد ظهور الاسلام ، بالحرية التى كانت تقاتل من أجلها تحت حكم بيزنطية ، منذ دخولها فى ذمة المسلمين ، أى فى إطار دولتهم .

« وإذا استقصينا مواقف الدولة الاسلامية الناشئة من أعدائها داخل الجزيرة العربية وخارجها ، تبين بوضوح أن الاسلام فى الجزيرة العربية حارب عبادة الأوثان قبل أى شيء آخر ، كما حارب التناحر القبلى الذى كانت عبادة الأوثان التعبير العقائدى له ، فوحد الله ليوحد عابديه . وخارج الجزيرة العربية حارب الاسلام سلطان الدولتين الكبريين آنئذ ، بيزنطية وفارس . ولم يكن النصارى العرب فى يوم من الأيام على سجل الأعداء ، بل العكس . ووقت أن كانت جميع دول الأرض لاترضى بدين آخر داخل تخومها ، كانت دولة المسلمين فى عز انتصارها وقوتها وغناها عن الملاينة والمسايرة ، تستحدث نظام تعدد الأديان فى الدولة الواحدة ، نظام أهل الذمة .

ويمضى فكتور سحاب قائلا : وفى رأيى أن نسبة هذا الاجراء (نظام تعدد الأديان) إلى السمو الخلقى وحده لايفسر الأمور بعمق . والأرجح عندى أن النصرانية الآرامية ــ العربية ــ القبطية كانت حليفا طبيعيا للاسلام فى إطار الصراع التاريخى الذى ظل يتجاذب المنطقة قرونا قبل ظهور الاسلام . وهذا يعنى أن دولة الاسلام كانت حليفا طبيعيا للنصارى العرب ، ماداموا فى صفها السياسى ، لا فى صف الدول العدوة ، ولا حاجة إذن بالمسيحيين العرب إلى الغرب ، بل إن الغرب هو الذى توسل إلى مصالحه بحماية من المسيحيين العرب ، وجعلهم فى كثير من الأحيان يدفعون من دمهم ثمن تحويلهم إلى متاريس يختبىء وراءها . حدث ذلك كلما كانت تقوم للغرب دولة فى منطقتنا : الحقبة البيزنطية ، والحقبة الصليبية ، والحقبة الحالية . فمن إذن يحمى النصارى العرب من « الحماية الغربية » التى كانت وبالا عليهم عبر

العصور ؟ ألم يطلب فارس الخورى السياسى السورى المسيحى البارز حماية المسلمين للنصارى العرب من مرامى الدول الغربية ونوازعها ؟ » .

ويرى فكتور سحاب أن الضمان الوحيد « حتى لايظل المسيحيون العرب يدفعون ثمن مدّ النفوذ الغربى وجزره كل مرة ، هو رفض التوجه نحو الغرب ، وتوسيع مساحة العيش المشترك مع المسلمين إلى أقصى الحدود ، حتى لايبقى من مساحة الاختلاف فى حياتنا غير الدين . والإسلام فى دولته التاريخية اتسع لمواطنين مسيحيين ، بل أثبت أنه أكثر اتساعا للمسيحيين العرب من دولة بيزنطية المسيحية . ولا شك أن الدولة العربية الحديثة تستطيع بلا عناء أن تكون فى مثل رحابة الدولة العربية الإسلامية الأولى على الأقل ، ولكن ذلك لا يظل مضمونا إذا لم يقاوم المسيحيون العرب محاولات تغريبهم » .

وقد يحس القارىء المصرى شيئا من الغرابة فى إفاضة الأستاذ فكتور سحاب فى الحديث عن محاولات تغريب المسيحيين العرب ، وما جرى لهم من هذه المحاولات . وهذا راجع إلى كونه لبنانيا ، وتأثره بما حدث للمسيحيين العرب فى الشام من جرّاء الحرب الصليبية قديما ، ثم بما حدث فى العصر الحديث لوطنه لبنان من حروب طائفية مهلكة كان سببها توجه طائفة الموارنة الثقافى والسياسى نحو الغرب ، وفرنسا بالذات ، وما نجم عن هذا التوجه من خراب ومذابح فى لبنان لم تجف دماؤها بعد .

وأخيرا ، يقول الأستاذ فكتور سحاب : « وإذ شارك المسيحيون العرب المسلمين أذواقهم ولغتهم ووجدانهم الاجتماعى ، فإن خير تكريس لهذه المشاركة هو الانضمام بلا تردد إلى العروبة الحضارية والسياسية الرافضة للسيطرة الغربية . إن هذه المشاركة تهم المسلمين لأنها إحدى ضمانات سيادتهم ، لكنها تهم المسيحيين أكثر لأنها ضمان مصيرهم . وفى إمكان المسيحيين العرب أن يتداولوا كلمة السرّ العظيمة التى رددها فى مثل ظروف اليوم الزعيم اللبنانى يوسف كرم منذ أكثر من قرن حين دعا المسيحيين إلى عدم تعليق الآمال على الدول الأجنبية لأن لها مشاريعها ومطامعها الخاصة بها . ويستطيع المسيحيون العرب أن يجدوا دائما من يشجعهم على مخاصمة أبناء قومهم والالتحاق بالغرب . لكنهم لن يستطيعوا دائما أن يجدوا من يقاتل بالنيابة عنهم .

ولو أراد الغرب أن يقاتل بنفسه لما اتبع سياسة دفع المسيحيين إلى خطوط النار . لقد أثبت التاريخ للمسيحيين العرب أن التغريب يسوقهم إلى الهلاك ، وأن التعريب أكثر مدعاة إلى اطمئنانهم إلى مصيرهم .

اختلاف التوجه بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية :

بالإضافة إلى التراث العربي الاسلامى للمسيحيين العرب ، فإن مسيحّيتهم تختلف عن مسيحية الغرب فى توجهاتها . فالتاريخ يروى أن أغلب كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية فى عصور الاقطاع كانوا يوالون الملوك والأمراء ، ويحيون حياتهم الباذخة ، و لم يأبهوا كثيرا لشعوبهم الفقيرة المظلومة . ولهذا تأصلت فى قلوب مثقفى ذلك العهد ومفكريه كراهية رجال الكنيسة . وما أن اشتعلت الثورة الفرنسية حتى أطاحت برموز عهد الاقطاع بما فيهم السلطة الكنسية .

وفى العصر الحديث ، دخلت فى مجرى الحياة السياسية والثقافية فى الغرب أفكار الملحدين والشيوعيين التى تولدت عنها أنماط سلوكية شاذة باسم الحرية ، و لم تستطع الكنيسة الغربية مقاومتها ، بل للأسف هادنتها وجاملتها . فى عام ١٩٩١ نشرت بعض الصحف الخبر التالى : « من المتوقع أن تناقش الكنيسة الأسقفية ــ أكبر طوائف الكنيسة البروستانتية ــ الأمريكية هذا الأسبوع مبدأ القساوسة الشواذ جنسيا ، ومباركة الكنيسة لزواج شخصين من نفس الجنس ! .. أكدّ تقرير الكنيسة أن وجود الشواذ والشاذات فى سلك الكهنوت لم يعد سرا ، وأن الكنيسة لايمكن أن تدافع عن حقوق الشواذ والشاذات فى المجتمع عموما إذا كانت تحرم العاملين فى سلك الكهنوت هذه الحقوق نفسها ! »[١] .

أما الكنيسة القبطية فى مصر فلقد كان لها سبيل آخر ، فقد تمسك آباؤها الأولون بدينهم ودخلوا بذلك فى معارك رهيبة مع الدولة البيزنطية المسيحية ، وسقط منهم شهداء كثيرون ولم يكونوا كأقرانهم فى أوربا ينحازون إلى الملوك والأباطرة ويبيعون دينهم بحياة الرغد والأبهة ، وإنما كانوا ــ فى أيام القهر ــ

---

(١) جريدة الوفد المصرية ٩ / ٧ / ١٩٩١ .

يلزمون أديرتهم وكنائسهم ، ويحنون على رعاياهم ويصبرون معهم ، ولم يبيعوا أبدا ملكوت السماء يملك الأرض .

وفى العصر الحديث لم تستطع الأفكار الانحلالية أن تغزو الكنيسة القبطية ، فظلت حياة أقباط مصر تجرى على سنن الاستقامة والطهارة .

تقول الأستاذة هبة سعد الدين : « عندما تبنى الغرب المسيحية لم يتشكل على صورتها الأساسية ، وإنما أخرجها على صورته وشكله ومقاسه . ولهذا لاتستطيع مسيحية البلاد العربية أن تجد خيوطها موصولة مع تلك المسيحية التى طوّعها الغرب لتخدم نظام العبودية ، ثم نظام الأقطاع ، ثم نظام الرأسمالية .. وواكبت الحملات الصليبية ، ثم المجازر الجماعية فى الأندلس ، بل وحتى فى أمريكا بحق الهنود الحمر ، ثم بحق الأفارقة فى ظل تجارة العبيد ، ثم وصل الأمر إلى مباركة بعض الكنائس البروستانتية الغربية لقيام دولة الاغتصاب الصهيونى فى فلسطين ، ومازال بعضها يدعم المؤسسات الصهيونية حتى يومنا هذا[1] .

العالم العربى والنظام الدولى الجديد :

نشرت جريدة الأهرام يوم ١٩٩٢/١٢/٦ حديثا للجنرال الفرنسى « بيير جالوا » أحد كبار المتخصصين فى الاستراتيجية الدولية ، حاول فيه أن يرسم معالم « النظام الدولى الجديد » ، فقال إن عماد ذلك النظام لن يتغير عن سابقه إلاّ من حيث أقطابه ، فبعد أن كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى هما قطبا النظام المنصرم ، سيكون النظام الجديد ثلاثى القطبية ، فتسيطر عليه أحلاف ثلاثة : « أولاها حلف الولايات المتحدة وكندا والمكسيك ، وثانيها الجماعة الأوروبية ، وثالثها اليابان ودول شرق آسيا . أما بقية العالم — ومنه الأقطار العربية — فسيحرص أقطاب النظام العالمى الجديد على إبقائه متخلفا خادما لثرائه . وسيحرص على إبقائه فى دائرة نفوذه كى يضمن استغلال ثرواته — خاصة البترولية — بأبخس الأثمان .

ولكن الاستراتيجى الفرنسى يستدرك قائلا « ان بوسع العالم العربى أن

---

(١) جريدة الشعب المصرية ٢٤ / ٩ / ١٩٩١ .

يقف فى وجه هذا المخطط العالمى الجديد ، فالمنطقة العربية لها اسهامات ضخمة فى الحضارة الانسانية فى الماضى ، واعتقد أنها قادرة فى المستقبل على الاسهام بدور حضارى كبير . لكن ماينقص العالم العربى هو الوحدة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة . وأنا حزين للعجز الذى يظهره العالم العربى أمام قضية مثل البوسنة والهرسك . وأنا أرى أن الجمهوريات الاسلامية التى تمخضت عن انهيار الاتحاد السوفيتى ستعطى قوة للعالم العربى لكن لنتفق أولا على أن اللحمة الرئيسية لهذا العالم هى اللغة العربية . ولنأخذ العبرة من التاريخ ، فقد كانت ألمانيا منذ قرنين مجزأة إلى نحو ٣٥٠ إمارة وولاية مستقلة . وقد ظهر مفكر عظيم يدعى « فشتة » وضع مؤلفا أسماه « حديث إلى الأمة الألمانية » قال فيه ان الرباط الذى يصل بين كل أبناء هذا الشعب هو اللغة الألمانية ، فالمواطن الألمانى هو الذى يتحدث اللغة الألمانية .

وقد التقط هذا الخيط المستشار « بسمارك » الذى قام ـــ بعد ذلك بستين عاما ـــ بتوحيد المانيا ، فأصبحت ماردا فى قلب أوروبا . وإذا كان من الصعب أن نقارن بين الوضع فى العالم العربى والوضع فى الامبراطورية الألمانية الممزقة فى بداية القرن التاسع عشر ، فإن هناك تشابها هاما هو وحدة اللغة التى تعنى وحدة الثقافة والفكر والرؤى . أنا مقتنع ـــ والكلام مازال للاستراتيجى الفرنسى الجنرال جالوا ـــ بأن العرب هم الطرف الوحيد القادر على كسر هذه الحلقة المفزعة التى ستوصلنا إلى نظام عالمى جديد يقوم ـــ مثل سابقه ـــ على السيطرة على ثروات العالم . إن لدى العرب كافة الامكانيات للقيام بهذا الدور ، لكن ينقصهم روح الوحدة والاقتناع بالمصالح المشتركة للعالم العربى .

انتهى حديث الاستراتيجى الفرنسى عن أهمية اللغة العربية فى صنع عالم عربى موحد يمكن أن يحطم سطوة النظام العالمى الجديد .

رؤية مسيحية للثقافة الإسلامية :

يشاء الله أن ينشر الأهرام فى نفس العدد ملاحظات أبداها المواطن المصرى الدكتور صموئيل عبد الملك على الأخطاء « النحوية » التى تظهر فى الصحف ، ثم يقول : « ليت المواطنين يراعون قواعد لغتنا الجميلة ،

ويكتبون ويتكلمون ويقرأون صوابها ، فاللغة العربية ــ لغة القرآن الكريم ! ــ تراث وثروة » .

وشرح هذا الكلام صدرى ، وأطلق لى عنان الخيال والأمل ــ وسط حجب الكآبة ــ فأصبحت أرى أمة العرب موحدة ، ساعية إلى آفاق حضارية مجيدة ، تحت راية عربية واحدة يحمل لواءها مواطنون عرب مثل صموئيل عبد الملك ، وجمال أسعد ، وموريس عريان ، وفكتور سحاب ، وحليم تادرس ، إلى جوار مواطنيهم المسلمين .

وتحت عنوان « من نحن ؟ » كتب الدكتور رفيق حبيب يقول : « أصبح البحث عن هوية أمرا حرجا للغاية ، يضعنا فى بؤرة اليأس . فأول خطوات التقدم تبدأ من معرفة الذات . ونحن نقضى سنوات وسنوات بحثا عن هويتنا . ولكن ألسنا فى النهاية ، وبدون أى جدل عقيم ، أبناء تلك الحضارة وذلك التراث المصرى العربى الإسلامى ؟ وإذا اختلفنا حول المسميات فسنظل أبناء تاريخنا ، ولن نكون أبناء أى تا ريخ آخر .

ثم يشير الدكتور رفيق إلى محاولة البعض منا التعلق بالحضارة الغربية ، وتقليد الغربيين فيقول : « إذا نظرنا حولنا الآن فسنعرف أننا نعيش الاغتراب الكامل .. ، إن الأرض والألوان والأشكال من حولنا لاتعبر عنا ، ولا عن أحد ، بل هى مزيج عقيم من التقليد الأعمى . ولكن ألم نعرف بعد أن تقليد الآخر ، وإن كان متقدما لايحقق لنا التقدم ؟! فلا يمكن أن تقلد شخصا فتحقق نفس نجاحه ، لأن نجاحه ماهو إلاّ إبداع يلائمه .. كان علينا أن نفهم أن قوة الآخر ليست بالضرورة قوتى ، والعكس صحيح . فنقاط القوة لدينا نقاط ضعف بالنسبة للغرب . إن التركيبة الاجتماعية المتميزة التى تمتد جذورها لدينا عبر تاريخ سابق ، لايمكن أن تحقق للغرب ماحقق من تقدم ، ولكنها حققت لنا فى الماضى الكثير ، وهى التى ستحقق لنا فى المستقبل تقدمنا الذى نحلم به[1] .

ونشر الأهرام لأحد كتابنا المسلمين مقالاً بعنوان « وا أزهراه » عن

---

(١) من مقال للدكتور رفيق حبيب بجريدة الشعب المصرية عدد ٢١ / ٨ / ١٩٩٢ .

تدهور حال التعليم فى الأزهر الشريف . وردّ عليه الأستاذ حليم تادرس أحد كبار رجال التعليم فى مصر بمقال أيضا . ولأن الأستاذ تادرس مثقف مخلص لعمله ووطنه ، فقد أبدى فى مقاله غيرة شديدة على الأزهر لايمكن أن يبدى أكثر منها عالم إسلامى جليل . كتب الأستاذ حليم تادرس فى مقدمة مقاله يقول : « استجابة لطلبك الغوث والانقاذ ، وسؤالك : أين أزهرنا ؟ ، وهو أزهرنا أيضا نحن المسيحيين أقباط مصر ، وليس أزهر المسلمين فحسب .

لأنه أولا مجمع لحماية الدين الاسلامى الذى كفل لنا نحن المسيحيين حرية العقيدة والاعتقاد ، وهما اسمى مايملك الانسان ، ووضع قوله تعالى « لا إكراه فى الدين » عنوانا لمعاملاته مع غير المسلمين ، ولأن من فوق منبره — ثانيا — خطب أقباط مصر عام ١٩١٩ ضد الاستعمار الانجليزى وهو — ثالثاً — الذى خضع له الحكام والأمراء ، وتزعّم الحركات السياسية الكبرى ، وكان حريا على الظلم والطغيان ، وعوناً على الحكام الظالمين حتى ٢٣ يوليو . وهو — رابعا — الذى حفظ مابقى من التراث العلمى والعربى ، وقاوم عوامل الانحلال والضعف والعجمة خلال العهد العثمانى . وهو — خامسا — ومن قبل ومن بعد جامعة كبرى للتربية والتعليم الدينيين .

ويمضى الأستاذ تادرس قائلاً : « أقول استجابة لطلبك الغوث والانقاذ ، ولأن الأزهر هو أزهر جميع المصريين : أشاركك استغاثتك ، واعتذر عن الانقاذ طالما بقى « قانون تطوير الأزهر » الصادر عام ١٩٦١ ، وهو القانون الذى بمقتضاه تحول الأزهر الجامع والجامعة الإسلامية الكبرى ، إلى جامعة مدنية شائهة وممسوخة .. حتى كلية الدراسات الإسلامية غيروا اسمها قبل سنوات قليلة إلى « كلية الدراسات الانسانية » ، مع أن الدراسات الإسلامية أشمل وأعم من الدراسات الانسانية »(١) .

□ ★ □

---

(١) من قال للأستاذ حليم تاادرس فى جريدة الأهرام يوم ٢٨ / ٩ / ١٩٨٩ .

الأقبــاط والإســلاميون

يطلق اسم « الإسلاميون » فى القاموس السياسى المعاصر على من يؤمنون بأن الإسلام ليس عقيدة وعبادات فحسب ، وإنما هو يملك شريعة تنتظم أمور الحياة كلها ، سياسية واقتصادية واجتماعية . وهم بهذا ، يقدمون الإسلام كمشروع حضارى للمستقبل ، بدلا عن المشروع الحضارى الغربى الذى يعتقدون أنه أفلس ، وأن نجمه آخذ فى الأفول بعد أن عملت فيه عوامل الانحلال عملها ، بسبب قيامه على أساس من المادة وحدها ، وعدم احتفائه بنواحى الروح . كما أن الإسلاميين يطرحون — دعما لفكرتهم — مقولة ان المشروع الغربى ولد فى ظروف وأحوال غريبة عنا ، وإذا كان قد صلح لأهل أوروبا وأمريكا فإنه لايصلح للشرق العربى . وبعض المفكرين المسيحيين يؤيدون الإسلاميين فى هذا الطرح كما سبق أن ذكرنا فى صفحات سابقة ، وكما سنذكر فيما بعد .

ومن طبائع الأمور — لاسيما بعد أن تلوث مجرى حياتنا بكثير من الكدر — أن يلقى مشروع الإسلاميين معارضة من كثيرين من الأقباط ، وأن يثير بينهم قدرا من القلق . ومن سوء الحظ أن فصائل من الإسلاميين لم يعملوا على تبديد هذا القلق ، بل ربما زادوه ، بفعل أفكارهم المتزمتة ، وغير الرشيدة ، والبعيدة عن النبع الصافى للإسلام . إلاّ أن فصائل أخرى ممن أوتوا فهما دقيقا واعيا للإسلام ، لم يألوا جهدا فى توضيح فكرهم ، وشرح مقاصد الشريعة الإسلامية البعيدة عن أى حيف .

وقد شرع المفكرون الإسلاميون المستنيرون — فى فيض من الدراسات والمقالات والكتب - فى توضيح أمور كثيرة فى الدين الإسلامى ، تزيل الغبار العالق ، وتمحو دواعى القلق والخوف . فهم بداية يقررون أن الدين الاسلامى دين رحمة وسماحة ، كما أنه دين حرية إنسانية بلغت

حدودا لم يعرفها العالم قبل الإسلام . ومن ثم لا يمكن لفرد أو جماعة غير مسلمة أن تضار بتطبيق الشريعة الإسلامية . ويستند الإسلاميون فى دعواهم هذه إلى آيات محكمات من القرآن الكريم ، وإلى أحاديث صحيحة لنبى الإسلام ، كما يستندون إلى وقائع ثابتة فى التاريخ الإسلامى على اختلاف مراحله . فهم يقولون :

من الثابت أن الإسلام دين رحمة شاملة ، ففى القرآن الكريم يقول الله سبحانه لنبيه ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾ . ولم يقل سبحانه رحمة للمسلمين أو المؤمنين ، وإنما رحمة للخلق كافة . وحديث النبى محمد ﷺ الذى يقول : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » بالغ الدلالة على مدى احتفاء الدين الإسلامى بالرحمة — حتى على الحيوان .

وفى حديث آخر يقول نبى الإسلام « فى كل ذى كبد رطبة أجر » . أى أن الانسان يؤجر من الله إذا مارحم أى كائن حتّى إنسانا أو حيوانا أو طيرا .. ، وقولة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب « لو عثرت بغلة بشاطىء الفرات لسُئِلتُ عنها أمام الله : لم لم تسوِّ لها الطريق » واضحة الدلالة على مدى الرحمة التى يستشعرها الحاكم الإسلامى ، فضلا عن دلالتها السياسية فى مدى مسئولية الحاكم عن كل مايجرى على أرض بلاده .

أفدين هذا شأنه من الرحمة ، يمكن أن يخاف من تطبيق شريعته على أخوة مواطنين ؟ وفضلا عن هذا ، فثابت فى القرآن والسنة ، وسيرة الخلفاء الراشدين ومن سلك مسلكهم من الحكام المسلمين ، وفى أقوال أئمة الفقه الإسلامى أيضا ، أن أهل الكتاب لاسيما النصارى لهم وضع متميز على سائر غير المسلمين .

ولقد جرى المصطلح الفقهى على تسمية أهل الكتاب بالذميين . وكلمة « ذمى » لغةً وفقها لا توحى بأى نقص ، بل تعنى أن صاحبها « أى الذمى » يدخل فى ذمة المسلمين وضمائرهم وأمانتهم فتجب رعايته واحترامه وعدم إيذائه . ومن الطبيعى أن يهتم الإسلام — وهو دين عدل وإنصاف — بالذميين حين يكونون أقلية بين أغلبيةمسلمين . فهنا تكون مظنة الايذاء وعدم

الانصاف واردة . ولذلك لزمت التوصية بل التشديد على الرحمة والانصاف .
ويذكر التاريخ أن آخر عبارة قالها عمر بن الخطاب وهو مطعون على شفا الموت ، هى توصية من يأتى بعده بالذميين خيرا . حتى فى هذا الظرف العصيب ، وجروحه تشخب دما ، وهو يجهد نفسه فى أمر جلل إلا وهو توجيه أصحابه إلى مايفعلون فى اختيار خلفه ، حرص عمر على التوصية بالذميين . ومن قبل عمر قال محمد ﷺ « من آذى ذِمِّيا فقد آذانى » .

أما عن قيمة « الحرية » فى الإسلام ، فقد وردت فى القرآن الكريم وأحاديث نبى الإسلام ﷺ وفتاوى الفقهاء أقوال رائعة تقدس « حرية الانسان » . لقد أفتى ابن عابدين فى « الحاشية » أنه إذا مااختلف مسلم وذمى على طفل ، فقرر المسلم أن الطفل عبد له ، وقرّر الذمى أنه ابن له ، حُكم لصالح الأخير ، لأن تنشئة الطفل على الحرية — وإن كانت على غير دين الإسلام — مقدّمة على تنشئته على العبودية ، وإن كانت على دين الإسلام !

وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز زادت حصيلة الزكاة حتى غطت جميع أوجه صرفها ثم فاضت ، فبعث والى تونس يسأل الخليفة عما يفعله بما تبقى من أموال الزكاة ، فطلب منه عمر أن يشترى عبيدا ثم يُعتقهم .

والآيات القرآنية كثيرة فى الحث على إعتاق العقيد ، وإطلاقهم إلى رحاب الحرية ، واعتبار ذلك تكفيرا عن خطايا المسلم ، وقربة إلى الله ، تماما كالصلاة والصوم .

ومن فرط احتفاء الاسلام « بالإنسان » — أى إنسان — أنه لم يقصر رعايته على حريته ، بل تجاوزها إلى « الكرامة » التى يجب أن تتوافر له وتصان . يقول الأستاذ فهمى هويدى : « كل مخلوق له فى الإسلام حصانة وحرمة .. فالروح التى تسرى فى كل كائن ، والتى هى من أمر ربى بنص القرآن الكريم لها كرامتها التى لاينبغى أن تُهدر بغير حق »[1] . ويسرد نصوصا كثيرة تثبت أن الكرامة التى يصونها الإسلام للانسان لاتتعلق بالمسلم وحده ، وإنما هى لسائر البشر . من ذلك واقعة قيام النبى محمد ﷺ عندما

---

(١) فهمى هويدى — مواطنون لا ذميون ص ٧٩ .

مرت به جنازة يهودى ، فلما نبه جلساؤه إلى أنه يهودى قال : أليست نفسا ؟ أليس إنسانا من خلق الله وصنعه ؟

وأوضح الأستاذ فهمى هويدى أن المساواة التى قررتها نصوص الدين الإسلامى وتقارير فقهائه بين المسلمين وغير المسلمين ، لا تقتصر على الحقوق المادية ، بل تتعداها إلى الحرمات والكرامات ، وقال إن الفقهاء سجلوا « وجوب كف الأذى عن غير المسلم ، وتحريم غيبته ! كالمسلم »[1] .

وبهذا يكون الإسلام قد منح غير المسلمين حقوقا أدبية تتجاوز الحقوق المدنية ، وأدخلهم مع مواطنيهم المسلمين فى حماية الضمير اليقظ والخلق الرفيع .

أما « حرية العقيدة » لغير المسلمين ، فقد حسمها القرآن الكريم بنصوص صريحة قاطعة فى آيات عديدة منها :

— ﴿ **لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** ﴾ سورة البقرة — الآية : ٢٥٦ .

ويوجه الله سبحانه الخطاب إلى رسوله فيقول :

﴿ **فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر** » سورة الغاشية — الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ سورة يونس الآية ٩٩ .

﴿ **... فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد** ﴾ سورة آل عمران — الآية : ٢٠ .

﴿ **ماعلى الرسول إلاّ البلاغ ..** ﴾ سورة المائدة — الآية : ٩٩ .

﴿ **قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ سورة الزمر — الآية : ٤٦ .

فالإسلام إذن لا يقر لأحد من المسلمين بدءا بالنبى ﷺ بحق إكراه

---

(١) فهمى هويدى — المرجع السابق ص ١١٤ .

الناس على الإسلام . ويحدد القرآن مهمة الرسول بتبليغ رسالته ، ومن لا يستجيب له فحكمه إلى الله يوم الحساب .

ولقد تدعمت حرية العقيدة لغير المسملين بتوكيد مساواتهم فى كافة الحقوق الجنائية والمدنية مع المسلمين ، فقد ثبت مثلا عن الامام على بن أبى طالب قوله : « من كان له ذمتنا فدمه كدمنا ، وديته كديتنا » . كما أفتى الفقيه المصرى الكبير الليث بن سعد فى شأن الذميين إذا وقعوا أسرى فى أيدى العدو بقوله : « أرى أن يفدوهم من بيت المال » . ومن التطبيقات التى مارست فيها الدولة الإسلامية المسئولية الكاملة عن حماية أهل الذمة ماحدث حين أراد أمير التتار « قطلو شاه » إطلاق سراح الأسرى المسلمين دون الذميين ، الأمر الذى رفضه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقال للأمير التتارى : « لابد من افتكاك جميع من لديك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيرا لا من أهل الملة (أى المسلمين) ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم » . وأصر المسلمون على هذا الموقف حتى أطلق سراح الجميع[1] .

ومن الاجتهادات الفقهية اللافتة للنظر ، والتى تكشف عن حساسية بالغة فى مراعاة مشاعر أهل الذمة ، وشدة الحرص على إنصافهم ماقال به الأحناف من وجوب تطبيق أحكام أهل الذمة على وصاياهم . ومن ثم أفتى هذا المذهب بصحة الوصية المتضمنة عملا مشروعا بحسب ديانتهم ، ولو كان هذا العمل محرما عند المسلمين . كما أفتى ببطلان الوصية المتضمنة معصية حسب اعتقادهم ، ولو كان هذا العمل قربة عند المسلمين .. مثلا ، لو أوصى ذمى بأن يجعل داره مسجدا ، أو أوصى لمسلم بالحج فوصيته باطلة . أما لو أوصى بأن يجعل داره كنيسة أو مسلخا لذبح الخنازير ، فالوصية صحيحة ![2] .

إلى هذا الحدّ بلغ حرص فقهاء المسلمين على رعاية حقوق أهل الكتاب . ولهذا لم يكن غريبا أن تكون الدولة الإسلامية على اختلاف العصور عنصر جذب لغير المسلمين لاسيما أولئك الذين كانوا يلقون الاضطهاد فى أوروبا على أيدى أبناء دينهم لمجرد اختلاف المذهب . وللأسف ، فكثيراً ما استغل

(١) فهمى هويدى — المرجع السابق ص ١١٤ ، ١١٥ .
(٢) فهمى هويدى — المرجع السابق ص ١١٦ .

أعداء الدولة الإسلامية جو الحرية والسماحة هذا فى الكيد لها . فالتاريخ يروى أن حكام الدولة البيزنطية استغلوا كنائس الشام بعد أن خضع للحكم الإسلامى ، واستعملوا بعض قساوسة تلك الكنائس وغيرهم جواسيس على النظام الإسلامى الحاكم . وقد كشف عن هذا مطران بيروت المارونى يوسف الدبس فى أواخر القرن الماضى ، وحذر مواطنيه الموارنة « من التهور فى معاداة السلطة القائمة فيهم لحساب ذوى الأغراض البعيدين عنهم »(١) .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن من أسباب انهيار دولة الخلافة الإسلامية العثمانية استغلال الجواسيس والمتآمرين لمناخ الحرية الدينية ، ونجاح كثيرين منهم فى الوصول إلى مناصب حساسة فى عاصمة الدولة العثمانية ، فاستطاعوا — إلى جانب عوامل أخرى — تقويض أركان الدولة وإسقاط الخلافة الإسلامية ، وتفكيك أقطارها لحساب دول أوروبا . ويقرر هؤلاء الباحثون أن تاريخ العصر الوسيط لم يشهد قط تلك الحرية لأتباع الديانات الأخرى إلاّ فى الدولة الإسلامية . فلم تكن أية دولة أوروبية تسمح بأدنى قدر من الحرية لمخالفيها فى الدين أو المذهب . بل كثيرا ماكانت تستأصل شأفتهم ، وتخيرهم بين التحول عن دينهم إلى المسيحية ، أو القتل ، أو الخروج من البلاد كما حدث فى الأندلس .

وقد اهتم الباحثون الاسلاميون بعرض موقف الاسلام منذ بدايته الأولى من النصارى على وجه الخصوص ، لما لهم من وضع متميز على سائر أصحاب الديانات الأخرى . وذكروا قصة وفد نصارى الحبشة الذين وفدوا على رسول الله ﷺ فى المدينة ، فأنزلهم فى مسجده ، وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم حيث كان يحمل إليهم بنفسه الطعام من بيته ، ولما أراد أصحابه أن يقوموا عنه بهذا العبء أبى وقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين (فى الحبشة) ، فأحب أن أكرمهم بنفسى .

كذلك روى أن وفدا من نصارى نجران جاء إلى المدينة ، فأنزلهم رسول الله ﷺ فى المسجد ، وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه ، فكانوا يصلون فى جانب

---

(١) فهمى هويدى — المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

منه ، ورسول الله والمسلمون يصلون فى جانب آخر . وتكرر ذلك المشهد الرائع فى كنيسة يوحنا الكبرى فى دمشق ، فقد رضى المسيحيون عند الفتح أن يأخذ المسلمون نصفها ، ورضى المسلمون أن يصلوا فيها صلاتهم « فكنت ترى فى وقت واحد أبناء الديانتين يصلون متجاورين ، هؤلاء يتجهون إلى القبلة ، وأولئك يتجهون إلى الشرق[١] .

ولم تكن احتفالات وأعياد غير المسلمين تتم بمعزل عن المسلمين .. فمنذ العهد الأموى كانت للنصارى احتفالاتهم العامة فى الشوارع ، تتقدمها الصلبان ورجال الدين بألبستهم الكهنوتية . وقد دخل البطريرك ميخائيل مدينة الأسكندرية (فى عهد هشام بن عبد الملك) فى احتفال رائع ، وبين يديه الشموع والصلبان والأناجيل ، والكهنة يصيحون : قد أرسل الرب الينا الراعى المأمون الذى هو مرقس الجديد .

« وجرت العادة أيام الرشيد بأن يخرج النصارى فى موكب كبير ، وبين أيديهم الصليب ، وكان ذلك فى يوم عيد الفصح »[٢] .

وجاء فى العهد الذى أعطاه خالد بن الوليد للنصارى من أهل « عانات » أن لهم الحق فى أن يضربوا نواقيسهم فى أى ساعة شاءوا من ليل أو نهار ، إلاّ فى أوقات الصلوات (حتى لايشوشوا على المسلمين فى صلاتهم) ، كما لهم الحق فى أن يخرجوا بصلبانهم فى أيام عيدهم[٣] .

□ ★ □

---

(١) د. مصطفى السباعى ــ من روائع حضارتنا ص ٨٤ ــ ٨٧ .
(٢) فهمى هويدى ــ المرجع السابق ص ٦٧ .
(٣) الخراج لأبى يوسف ص ١٤٦ .

الفصل السادس

المسيحيون وتطبيق الشريعة الإسلامية

الفصل السادس

المسيحيون وتطبيق الشريعة الإسلامية

عندما يطرح المفكرون الإسلاميون مشروعهم بتطبيق الشريعة الإسلامية يسوقون حشدا من الأدلة القاطعة على أن تطبيق الشريعة لا يمكن أن يلحق ضررا بغير المسلمين فى الأقطار الإسلامية . ويؤكدون أن حقوق غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى هى حقوق ناشئة أصلا من نصوص القرآن والسنة ، ولهذا أصبحت لها قداسة وحصانة عقيدية لا يجوز انتهاكها . فمثلا لايمكن ــ دينا ــ أن تتأثر تلك الحقوق بسوء معاملة الأقليات المسلمة فى الدول غير المسلمة .. بحجة الأخذ بقاعدة المعاملة بالمثل ، لأن هذه القاعدة تقف ولا يعمل بها مادامت تتضمن ظلما وانتقاصا من حقوق غير المسلم التى قررتها الشريعة الإسلامية التى من قواعدها الآية القرآنية ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[1] .

ويقول دعاة تطبيق الشريعة ان الأديان السماوية كلها خرجت من مشكاة واحدة ، فهى تقوم أولا على العبودية لله وحده ، وثانيا على دعائم الحرية والعدل والمساواة . وهذه الدعائم ذاتها من مقاصد الشريعة الإسلامية كما يقرر علماء الأصول الإسلاميون . ويقولون ان الديانة المسيحية انتهجت منذ بدايتها نهجا محددا قصر مجالها على العبادات والفضائل ، وفصلت بين شئون الدنيا التى رأت ترك تبعتها كاملة للحاكم الدنيوى ، وبين شئون العقيدة . وحكمت بأن ملكوت الله إنما هو فى السماء وليس على الأرض ، وإن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . أى أن المسيحية لم تطرح مشروعا دينيا للحكم فى الدنيا .

---

(١) د. عبد الكريم زيدان ــ بحث مقدّم إلى مؤتمر حقوق الانسان عقد فى جامعة الكويت فى ديسمبر سنة ١٩٨٠ .

ويسوق الإسلاميون نصوصا مسيحية فى هذا السياق تدعم رأيهم فيقولون : « أن الحكم فى ظل العقيدة النصرانية هو من شأن رجال الدولة ، وليس لرجال الدين المسيحيين فيه من حق ، ولا للمسيحية فيه برنامج محدد « لأن من ينهاهم عن محبة العالم وما فيه لا يقرر لهم معاملاته » ، ولأن المسيح رفض حتى أن يقسم للرجل ميراثه مع أخيه . وقامت العلاقة بين الكنيسة والسلطة على هذا المبدأ الذى قرره الأنبا أثناسيوس « ليس لرجال الدين أن يمارسوا حكما أرضيا ، ولا للامبراطور أن يقوم بعمل كنسى »[1] .

ويتساءل الإسلاميون : إذا كان الأمر كما رأينا فماذا يضير المسيحيين فى المشرق العربى أن يطرح مواطنوهم المسلمون مشروعا إسلاميا للحكم فى الدنيا ، يقوم على أساس العبودية لله وحده ، وتحقيق الحرية والعدل والمساواة بين الناس ، فى وجه مشروع الحضارة الغربية التى تخلت تماما عن الدين — كل دين — وجعلت المادة أساس توجهاتها ، والسيطرة على الشعوب المستضعفة غايتها ؟

وللحق أن المفكرين الإسلاميين لم يدخروا وسعا فى طرح كم هائل من الأدلة الدينية والعقلية على أن المسيحيين وغير المسلمين عموما لايضارون بتطبيق الشريعة الإسلامية ، لا فى دينهم ولا فى حقوقهم كمواطنين .

أفتى العلاّمة الهندى أبو الأعلى المودودى بما استقر عليه الرأى فى الفقه الإسلامى من أنه إذا أتلف أحد من المسلمين خمر الذمى أو خنزيره كان عليه غُرمه (أى دفع ثمنه) . ويقرر الأستاذ فهمى هويدى أن الأمر بالقتال فى الإسلام هو « لدفع الاعتداء والظلم ، ولاستتباب الأمن . وهو لحماية الأديان كلها من الاضطهاد فيها أو الاكراه عليها .. يشهد على ذلك قوله تعالى فيما تلا مباشرة الأذن الوارد بالقتال ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا** ﴾ . ومعنى ذلك أن المسلمين مُكَلَّفُون بالقتال دفاعا عن كنائس المسيحيين ومعابد اليهود ، لأن اسم الله جلّ جلاله يذكر فيها جميعا . ويلاحظ الأستاذ هويدى معنى دقيقا

(١) محمد جلال كشك — بحث فى جريدة « الشعب » المصرية فى ٣٠ / ٦ / ١٩٩٢ .

حين يقول : « ويلاحظ فى هذه الآية أن أماكن العبادة لغير المسلمين وردت فى الآية قبل مساجد المسلمين[1] . ماأروع مايهتدى إليه المفكر حين يصفو ذهنه وتسمو غايته .

والواقع أن فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية لا تلقى معارضة من بعض الأقباط فحسب ، وإنما قد تكون المعارضة أشد من قبل من يسمون بالعلمانيين المسلمين ، وهؤلاء دوافعهم شتى ، فبعضهم — وعلى الأخص القريبون من مواقع السلطة والثروة — يعتقدون أن تطبيق الشريعة بما يستتبعه من وضع الجميع — حكاما ومحكومين — على جادة الاستقامة والطهارة والمساءلة سيرهقهم من أمرهم عسرا . والبعض الآخر ممن لازالوا يؤمنون بالماركسية ، يضمرون عداوة تقليدية للإسلام ويعتبرونه الدّ خصومهم ، والعائق الأكبر لانتشار فكرهم وسط جماهير الأمة الإسلامية .

والبعض الثالث من ذوى الثقافة الغربية ، الذين لم يدرسوا الإسلام دراسة جيدة ، يحملون مخاوف من عواقب الحكم الإسلامى . وتلوح فى أذهانهم صور ترددت فى تاريخ العصور الوسطى فى أوربا عن الحكومة « الثيوقراطية » حيث كان الملوك يحكمون بسلطة « الحق الإلهى » الذى كان يضمن لهم ذاتا مصونة لا تمس ، ويُضفى على قراراتهم عصمة وحصانة — مهما تكن تلك القرارات ظالمة أو غاشمة ، ولا يملك الشعب إزاءها حق نقد أو تعديل .

ولكن من يدرس تاريخ الدولة الإسلامية وعلى الأخص فى صدر الإسلام ، يعلم تماما إن الحكم بمقتضى « الحق الإلهى » ليس له وجود فى تاريخ الإسلام . حتى نبىّ الإسلام الذى كان يتنزل عليه الوحى ، لم يستشعر قط أنه فوق الناس . جاءه أعرابى ذات يوم يسأله فى شأن من شئون الدين فأُخذ الأعرابى من مهابة رسول الله وأصابته رعدة ، فما كان من النبى ﷺ إلاّ أن ربت على كتف الأعرابى وقال له : هوّن عليك ، فما أنا بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

وكان عليه الصلاة والسلام عندما يخرج مع أصحابه فى سفر ، ويهمون

---

(١) فهمى هويدى — مواطنون لا ذميون ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

بطهى الطعام ، يصر على مشاركتهم ويقول « اجمع لكم الحطب ، فإن الله يكره أن يتميّز المرء على إخوانه » . ومعروف من سيرته أنه كان يخرج إلى السوق ، ويحمل حاجياته فى طرف ثوبه ، ويحلب الشاه ، ويكنس داره . فهل مثل هذا السلوك يمكن أن يشابه سلوك الأباطرة وبابوات أوروبا الذين حكموا « بالحق الإلهى » ؟

ولم يكن هذا السلوك مجرد « تواضع » من حاكم عظيم ، بل كان التزاما بنصوص قرآنية ، تأمر نبى الإسلام بأن يبين للناس أنه مجرد بشر مبلغ لرسالة ، وأنه ليس وسيطا بين الله والناس ، وأنه لايستطيع أن يجلب لهم النفع أو الضرّ . يقول له الله : ﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله** ﴾ الأعراف : ١٨٨ ، ويقول أيضا : ﴿ **قل ماكنت بدعا من الرسل ، وما أدرى مايُفعل بى ولا بكم** ﴾ الأحقاف : ٩ ، ويقول له : ﴿ **لست عليهم بمسيطر** ﴾ الغاشية : ٢٢ .

وعلى هذا الهدى سار الخلفاء الراشدون ، بل جميع الأمراء والولاة الذين التزموا بسنة رسول الله . أمامن حاد منهم عنها ، فلا يمكن أن يكون حجة على الدين فى النظر الصحيح ، بل تكون الأمة هى المسئولة عن انحرافه لأنها تقاعست عن تقويمه وإرجاعه إلى الجادة .

عندما بويع الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، كان أول ماقاله فى خطبته : « لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فاعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى ، أطيعونى ماأطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

ومعروفة هى حادثة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، عندما قاطعه أحد عامة المسلمين وهو يخطب قائلا له : « لا سمع ولا طاعة لك ياعمر ! » ، لمجرد أن الرجل ظن أن الخليفة تميز على سائر المسلمين وأخذ من بيت المال قطعة قماش أطول قليلا مما أخذه غيره . وكان مما قاله الرجل لعمر فى هذا الموقف : « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا ، ولم يغضب عمر ، وهو المعروف بشدته ، وإنما رد على الرجل قائلاً : « الحمد لله الذى أوجد فى أمة محمد من يُقوّم اعوجاج عمر » ! . فهل هؤلاء حكام « بالحق الإلهى » ؟ .

يقول الدكتور محمد يوسف موسى فى كتابه : « نظام الحكم فى الإسلام » : ليس الخليفة أو الامام إلا رجلا اختارته الأمة ليكون ممثلا لها ، يتولى الاشراف على أمورها وتدبير شئونها . ومن ثم يكون عليها واجب تقديم النصيحة له فيما ينبغى النصيحة فيه ، وواجب التوجيه والتقويم ، بل ان لها أيضا عزله ان وجد مايوجب العزل ، كما هو الأمر بالنسبة للموكل مع وكيله النائب عنه .

« ومن أجل هذا ، لايعرف الإسلام للخليفة مركزا خاصا فى الأمة ، نعنى مركزا يحميه من النصح والتوجيه ويعفيه من بعض مايكون على أبناء الأمة من واجبات .. ، الخليفة إذن فى نظر الإسلام ليس له أى صفات من صفات الألوهية ولو من بعيد ، وليس مقدسا ولا معصوما فى نظر المسلمين ، وليس له الحق وحده فى بيان الدين وتفسير نصوصه ، وليس له سلطة دينية على أحد ، بل هو رجل وثقت الأمة بدينه وعدالته ، فولته أمورها يديرها بمقتضى الشريعة .

ثم ينقل الدكتور محمد يوسف موسى عن الامام محمد عبده قوله : « الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحى ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة .. هو على هذا لا يخصّه الدين بمزية فى فهم الكتاب والعلم بالأحكام ، ولا يرتفع به إلى منزلة خاصة ، بل هو وسائر طلاب العلم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الاصابة فى الحكم .

ثم هومطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه ، وإذا أعوج قوّموه بالنصيحة والإعذار إليه .. فالأمة هى التى تنصبه ، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه .. وليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر ، وهى سلطة خوّلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خوّلها لأعلاهم يتناول بها أدناهم » . انتهى كلام الامام الشيخ محمد عبده[١] .

---

(١) د. محمد يوسف موسى ــ نظام الحكم فى الاسلام ــ الطبعة الثانية ص ٨٢ ، ٨٣ .

وعلى درب الشيخ محمد عبده رائد حركة التنوير الإسلامى ، سار المفكرون المعاصرون ، وخرج بعضهم باجتهادات هامة مفصلة فى مسألة مشاركة غير المسلمين فى مناصب الحكم على اختلافها فى الدولة الاسلامية . يقول الدكتور اسماعيل الفاروق استاذ علم الأديان المقارن بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة « ان غير المسلمين يستطيعون أن يعملوا فى أى هيئة حكومية بما فى ذلك الدفاع عن الدولة الإسلامية[1] .

ولا يرى الدكتور فتحى عثمان مانعا شرعيا يحول دون تولى غير المسلم القضاء حتى الجنائى منه ، إذ يلاحظ أن غالب الأحكام الجنائية هى من باب التعزير الذى تقرره السلطة التشريعية ، أو يترك فى نطاق ما للقاضى من تقدير العقوبات . ويقول : « إن الحدود المنصوص عليها شرعا معدودة ، ويمكن أن تكون لها دوائر خاصة مثلما هو الحال فى دوائر الجنايات فى كثير من الدول الآن . ويحسن أن يكون رئيسها وأغلب أعضائها فى الدولة الإسلامية من المسلمين ، ولا بأس أن يكون أحد أعضائها غير مسلم . ومن الطبيعى أن يكون قاضى الأحوال الشخصية للمسلمين مسلما ، ولغير المسلمين واحدا من دينهم ومذهبهم[2] .

وفميا يتعلق بالجيش يقول الدكتور فتحى عثمان : « إن الخدمة فى القوات المسلّحة واجب وحق ، وتكليف وتشريف . والمسلمون يرونها جهادا شرعيا فى سبيل الله ، وغير المسلمين يعتبرونها دفاعا عن الوطن . ويسع الجميع ماوسع المسلمين وغيرهم فى كتاب رسول الله ﷺ أثر هجرته إلى المدنية إذ جاء فيه « ... وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .. وإن اليهود ينفقون (فى تكاليف الجيش) مع المؤمنين ، ماداموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » إلى آخر « الصحيفة » التى كتبها رسول الله ﷺ عهدا

(١) د. اسماعيل الفاروق بحث عن حقوق غير المسلمين فى الدولة الاسلامية نشر فى مجلة المسلم المعاصر العدد ٢٦ لعام ١٩٨١ ص ٢٥ .

(٢) بحث حول مراجعة الأحكام الفقهية الخاصّة بوضع غير المسلمين ــ نشر فى مجلة الأمان البيروتية فى يونيو ١٩٧٩ .

وميثاقا بينه وبين الأنصار وسائر أهل يثرب ، يحدد حقوق الجميع وواجباتهم فى السلم والحرب بحيث اعتبرها المؤرخون والمفكرون المعاصرون أول دستور فى الإسلام ، وأخذوا منها الكثير من الأحكام الشرعية فى مجال السياسة والحكم .

وفيما يختص بمناصب الدولة العليا ، نود أن نوضح أولا أن هناك اعتقادا شائعا بأن نظام الحكم فى الدولة الإسلامية مرتبط بالضرورة بنظام « الخلافة » ، وبشخص « خليفة » للمسلمين جميعا ، قد يسمى أحيانا « إماما » أو « أميراً للمؤمنين » . وهذا الاعتقاد لا أساس له من نص شرعى . وقد وُجدت تلك الأسماء أو الألقاب نتيجة اجتهادات ، أو ظروف سياسية . وكل ماتفرضه الشريعة أن يكون لجماعة المسلمين حاكم ، أيا كان اسمه ، إماماً أو ملكاً أو أميراً ، أو رئيس جمهورية ، حتى لا ينفرط عقد المسلمين ، وحتى يوجد من يوجه الدولة ويقودها للدفاع عن أراضيها ودينها وحرماتها ، ويسوس الرعية ويفرض العدل ، وينشر العمران والرخاء .

والواقع أن القرآن والسنة لم يخوضا فى شكل نظام الحكم فى الدولة الإسلامية ، لا من حيث كيفية اختيار الحاكم ، أو نطاق سلطته ، أو مدة ولايته . دليل ذلك أن النبى ﷺ لم يعين من يخلفه . وإذا كان أبو بكر رضى الله عنه قد أوصى بمبايعة عمر بن الخطاب خليفة من بعده ، فقد كان ذلك تقديرا شخصيامنه للظروف التى رآها تحيط بالمسلمين آنذاك ، فقد كانت الدولة الإسلامية مشتبكة فى بداية حروب مع الفرس والروم ، فرأى ألاّ يترك المسلمين بلا أمير لفترة قد تقصر أو تطول فى أيام حرجة . كما رأى أن عمر بتقواه وصلابته هو رجل الموقف . وأخيرا رأى أنه لايوجد نص دينى ملزم فى هذا الشأن ، فاجتهد فى رأيه .

ثم إنه لم ينفرد بهذا الترشيح ، وإنما استشار فيه المهاجرين الأولين ، الذين شاركوه هذا الترشيح ، ثم عقدت لعمر البيعة العامة بعد وفاة الصديق .

كذلك عمر بن الخطاب ، لم يلزم نفسه بموقف الرسول عندما لم يعين خليفة له ، ولا بموقف أبى بكر حين رشح . وإنما اجتهد وأشار على أصحابه بمبايعة واحد من ستة رأى أنهم خير من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ وهم المهاجرون الأولون .

والخلاصة أن الدين الإسلامى لم يضع نصوصا وقواعد لنظام الحكم . وإنما الفقهاء هم الذين عالجوا ذلك الأمر فيما بعد بكثير من التفصيل ، وكانت لهم نظرات ثاقبة فى كثير من الأحيان ، وان تأثرت آراؤهم وأحكامهم دائما بالأحوال السياسية التى سادت عصورهم .

والدليل على عمق تفكير فقهاء المسلمين فى هذا الشأن الهام انهم عندما تناولوا الصفات التى يجب توافرها فى الحاكم الإسلامى ، ورتبوا تلك الصفات حسب أهميتها ، وضع معظمهم فى المقدمة الشجاعة والثبات والقدرة على اقتحام الملمات ، ثم صحة العقل والنفس والبدن . واشترط بعضهم الورع والتقوى ، ولكن آخرين اكتفوا من الحاكم بأداء الفرائض ، وترخص بعضهم فى ذلك حين اكتفوا من الحاكم بعدم الجهر بالمعاصى . ولكنهم أصرُّوا على أن يتصف بالعدل ، وبالقوة فى ردع الظالمين .

وإذا كان فقهاء الإسلام القدامى لم يهتدوا إلى تفاصيل الحكم الديمقراطى التى اهتدى إليها مفكرو الغرب فيما بعد ، فإنهم — على قدر ظروف عصرهم العمرانية — وضعوا قاعدة قيام أهل الحل والعقد (وهم النخبة العالمة القوية القائمة بعاصمة الدولة) بترشيح الخليفة لجماهير المسلمين الذين لهم حق مبايعته بعد ذلك . ولم تكن ظروف العصر تسمح بأكثر من ذلك ، ولم تكن الانتخابات العامة الشاملة لجميع أرجاء البلاد لاختيار الحاكم أمرا ميسورا .

وعدم خوض القرآن والسنة فى مسائل نظام الحكم أمر يحسب للإسلام . فقد شاء الله تعالى الاّ يقيد المسلمين على اختلاف العصور بنصوص جامدة ، وترك تلك الأمور لعقول المسلمين كى يراعوا ظروف العصر وظروف مجتمعهم فيما يختارونه من قواعد للحكم . ولكن القرآن والسنة حفلا ببيان مايجب أن يتصف به الحاكم من عدل وشرف ورحمة وشجاعة .

كما أوضحت السيرة العملية لنبىّ الإسلام ولخلفائه الراشدين إشارات عامة — ولكن واضحة تماما — عن حقوق الرعية إزاء الحاكم : متى يطيعونه ، ومتى ينتقدونه ويوجهونه ، ومتى يخرجون عليه .

لقد حدد الإسلام « الشورى » فلسفة للحكم ، وسبيلا لاختيار الأمة حاكمها ، وترك لها الاجتهاد فى النظم والآليات والمؤسسات .

وقبل أن نعود إلى مسألة موقف الإسلام من حق غير المسلمين فى تولى وظائف الدولة العليا ، نود أن ننبه إلى أن ماسنطرحه من اجتهادات فقهية هو من قبيل التنظير والتأصيل لا أكثر . إذ أن الممارسة العملية فى هذا الشأن قد حسمت الأمر فى جميع الأقطار الإسلامية منذ قرون عديدة ، فقد تولى عديدمن غير المسلمين مناصب الوزراء فى مختلف العصور ، وعندما كانت الشريعة الإسلامية كاملة التطبيق . وفى مصر تولى إثنان من المسيحيين رئاسة الوزارة عندما كانت مصر جزءا من دولة الخلافة الإسلامية العثمانية ، هما نوبار باشا ، وبطرس غالى باشا . وكانت ولاية أولهما (نوبار) فى عهد الخديو اسماعيل حين كانت السيادة على مصر خالصة لدولة الخلافة الإسلامية ، أى قبل الاحتلال البريطانى لمصر .

ثم نأتى إلى آراء الفقهاء . أورد الأستاذ فهمى هويدى فى كتابه « مواطنون لا ذميون » اجتهادا فى هذا الموضوع لقاضى القضاة أبو الحسن الماوردى البغدادى المتوفى عام ٤٥٠ هجرية فى كتاب بعنوان « الأحكام السلطانية والولايات الدينية » ، وفيه يطرح رؤية جديرة بالتأمل ، وإن كان عمرها حوالى ألف عام[١] .

يخصص الماوردى الباب الأول من كتابه لعقد الإمامة ــ التى يعتبرها « موضوعة لخلافة النبوّة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » ، الأمر الذى كان طبيعيا معه أن يشترط فى الامام أن يكون مسلما . ثم يعقد فصلا بعد ذلك « فى تقليد الوزارة » ويقول : « الوزارة على ضربيْن ، وزارة تفويض ، ووزارة تنفيذ .

ويعرف وزارة التفويض ، فهى « أن يستوزر الامام من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه ، وإمضاءها على اجتهاده . وليس يمنع (شرعا) جواز هذه الوزارة . يدلّل على ذلك بقوله تعالى عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ **واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى** ﴾ . ويعقب على الآية بقوله : فإذا جاز ذلك (أى التفويض) فى النبوة ، كان فى الامامة أجوز .

---

(١) فهمى هويدى ــ المرجع السابق ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

وفى شروط تولى منصب وزير التفويض يرى الماوردى أن تعتبر فيه شروط الامامة نفسها ـــ وأولها الإسلام ـــ وإن أضاف شرطا فوق ماهو مشروط للامامة هو « أن يكون من أهل الكفاية » .

« وأما وزارةالتنفيذ فسلطاتها وشروطها أقل .. وهذا الوزير وسط بين الامام وبين الرعايا والولاة (حكام الأقاليم) ، يؤدى عنه ما أمر به .. » . وبعد أن عدّد الماوردى سبعة شروط فى وزير التنفيذ ، أولها الأمانة ، وسابعها الا يكون من أهل الأهواء ، يقول : « ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة ، وان لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم .

ولكن الدكتور فتحى عثمان يعقب على ما أثاره الماوردى فى الأحكام السلطانية بخصوص « وزارة التفويض » فيقول : « فى أيامنا لاتنعقد وزارة التفويض لشخص واحد ، وإنما تنعقد لهيئة هى « مجلس الوزراء » يرأسها رئيس الوزراء . أو هى « الحكومة » ويرأسها رئيس الحكومة .. ومن ثم لايكون هناك محذور فى تولى واحد أو أكثر منصب الوزارة من غير المسلمين ، فى ظل نظام برلمانى ، وبالنسبة للنظام الرئاسى وما إليه من الملكية التى يحتفظ فيها الملك بسلطة رئيس الحكومة ، فالأمر واضح فى جواز تولى غير المسلم أى منصب من مناصب الوزراء دون أى إشكال » .

أما منصب رئيس الدولة الإسلامية ـــ أيا كان اسم هذا المنصب ـــ فإن الاجماع ينعقد على عدم جواز إسناده لغير المسلم . وفى هذا يقول الدكتور فتحى عثمان : « والحق أن كثيرا مما يجوز ولا يجوز للأقليات توليه من المناصب ، يمكن الاستئناس فيه بسوابق العمل فى الدول المختلفة . فوجود الأقليات ليس مما تنفرد به دولة الإسلام . وتحديد مناصب قيادية معينة للغالبية ليس مما تنفرد به دولة الإسلام ، وإنما قد تكون لطبيعة الدولة الإسلامية وخصائصها آثار فى هذا المجال ، فلا يتصور مثلا أن يكون رؤساء الدولة والحكومة والسلطة التشريعية والمحكمة العليا فى الدولة الإسلامية من غير المسلمين (رغم أن ذلك حدث فى مصر الحديثة ثلاث مرات : عندما تولى نوبار باشا وهومسيحى رئاسة الوزراة عام ١٨٧٨ ، كما تولى بطرس غالى باشا المنصب ذاته عام ١٩٠٨ ، وفى عام

١٩١٩ أسندت رئاسة الوزارة إلى قبطى ثالث هو يوسف وهبة باشا) ، كما لايتصور أن يكون هؤلاء من المسلمين فى أية دولة علمانية ديموقراطية غربية ، بل من غير المسيحيين اتباع مذهب الغالبية بالذات فى أكثر الأحوال (فى الولايات المتحدة جرى العرف على انتخاب رئيس بروتستانتى ، ورئيس الوزراء فى بريطانيا بروتستانتى بالضرورة) .

فارس الخورى والشريعة الإسلامية :

فارس الخورى مسيحى سورى معاصر ، كان أستاذا فى كلية الحقوق فى دمشق ، ثم عميدا لها . تبوأ منصب رئاسة مجلس النواب فى سوريا ، ثم تولى رئاسة الوزارة ثلاث مرات ، واعتذر عن رئاسة الجمهورية عندما عرضها عليه بالحاح وفد من قادة المسلمين فى سوريا ، وأقام اعتذاره على أساس احترامه للدستور السورى الذى اشترك هو نفسه فى النص فيه على أن يكون رئيس الدولة السورية مسلما .

درس فارس الخورى بحكم أستاذيته فى القانون الشريعة الاسلامية فأعجب بها إيما أعجاب . وانعكس هذا الاعجاب على مؤلفاته ومقالاته فى القانون الدولى المقارن ، بل وظهر جليا قوياً فى حياته السياسية الحافلة .

فى عهد الوحدة بين سوريا ومصر (١٩٥٨ ــ ١٩٦١) بعث فارس الخورى رسالة إلى المشير عبد الحكيم عامر نائب الرئيس فى دمشق يقترح عليه إسناد الحكم فى « الاقليم السورى » إلى الساسة الاسلاميين الذين يطالبون بتطبيق الشريعة ، كى يقيموا حكم القرآن والسنة فى الأمة ، على أن يكتفى هو (عبد الحكيم عامر نائب الرئيس) بالاشراف فقط . وعلّل فارس الخورى اقتراحه بأن الاسلام هو أمل الناس من ناحية ، وإنه من ناحية أخرى إذا قورن بالنظم السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية الأخرى فهو أفضلها . وقال الخورى فى رسالته ان المسيح عليه السلام لم بُشر إلى أى نظام اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى إلاّ إشارات عارضة داعية إلى الصفاء الروحى والتهذيب الوجدانى ، والرحمة واللين والتسامح ، تاركا القوانين والنظم والحدود إلى الدولة الرومانية الوثنية . فإذا كانت المسيحية ــ كما يقول فارس الخوترى ــ قد قبلت النظم التى وضعها الوثنيون المشركون الرومان ، فلا ضير عليها ولا بأس أن

تقبل بالنظم والقوانين والحدود الإسلامية ، خاصة أن الاسلام يعترف بالمسيحية ديناً ، وبعيسى رسولا ونبيا ، وبالحواريّين تلامذة قدّيسين . وأكد فارس الخورى فى رسالته لعبد الحكيم عامر أنه لايتكلم فى هذا عن عاطفة أو جهل ، بل عن عقل وعلم وإدراك(١) .

وفى أحد مجالسه الخاصة قال فارس الخورى للقسيس البروتستانتى داوود مترى : « أنا مسحى ، ولكننى أجاهر بصراحة أن عندنا النظام الإسلامى ، وحيث اننا فى « الجمهورية العربية المتحدة » أكثريتنا الساحقة مسلمة ، فليس هناك مايمنع من تطبيق المبادىء الاسلامية فى السياسة والحكم والاجتماع » . ردوا عليه فى مجلسه هذا : ولكن هناك بعض المسلمين أنفسهم لايعتمدون بسهولة تطبيق النظام الإسلامى بسبب الأقليات الغير مسلمة من ناحية ، وبسبب موقف الشرق (الاتحاد السوفيتى) والغرب من ناحية أخرى .

ردّ عليهم فارس الخورى قائلا : يمكن تطبيق الاسلام كنظام دون الاعلان عنه أنه إسلام ! كما يطبق حكام اليوم الشيوعية قائلين أنها اشتراكية إسلامية أو اشتراكية عربية . إن النظم الهدامة من الشرق أو الغرب تهدد كلا من المسيحية والاسلام معا ، ولا يمكن محاربة هذا كله إلا بالاسلام(٢) .

وكان فارس الخورى يكرر دائما فى مجالسه القول بأن مسيحية الغرب هى مجرد ادعاء . وتعصبهم للمسيحية لم يمنعهم من تسليم مهد المسيح وقبره لليهود الذين صلبوه ، فى حين أن المسلمين على تنوع مذاهبهم ونزعاتهم أشدّ غيرة على مهد المسيح وقبره من المسيحيين الأوربيين .

وفى عام ١٩٥٤ عندما كان فارس الخورى رئيسا لمجلس النواب ، تقدم النائب الشيخ عبد الحميد الطباع بمشروع قانون لتطبيق الحدود الاسلامية فى الجنايات ، ولم يحظ المشروع بموافقة المجلس ، ولكن فارس الخورى أثنى على المشروع قائلاً : « إنه لو طبق لوفرّ جانبا كبيرا من ميزانية الدولة يُنفق

---

(١) محمد الفرجانى ـــ فارس الخورى ، طبعة بيروت عام ١٩٦٥ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
(٢) د. فهمى الشناوى ـــ مجلة المختار الاسلامى ـــ أكتوبر ١٩٨٩ .

على اعداد مهولة من رجال الشرطة ، والقضاة ، والمحاكم وما إليها ، إذ لن تكون هناك حاجة إلى معظم هؤلاء بمجرد أن تُقطع يد سارق ، وأن يرجم زانٍ ، وأن يجلد شاهد زور ، وقال الخورى : فى العهد العثمانى — عندما كانت تطبق الشريعة — لم يكن فى سوريا سوى ثلاث محاكم شرعية تنظر كل أنواع القضايا ، ابتدائية وكلية واستئناف وأحوال شخصية . ومع ذلك كان قضاة ذلك العهد يجلسون فى المحاكم دون عمل تقريبا إذا لاترد إليهم قضية إلاّ فى النادر . وأردف الخورى قائلاً : « أما الآن فقد تدنت الأخلاق ، وانتشر الفساد وعدم الاكتراث ، لسبب وحيد هو أن عقوبات القانون المدنى غير زاجرة ، والمحامون يجدون الثغرات فى القانون ، والمتقاضون يتقنون فنون الاختلاق والادّعاء .

وفى ٧ فبراير عام ١٩٥٩ نشر فارس الخورى تصريحا أعاد فيه الدعوة إلى الحكم بالشريعة الاسلامية قائلاً : « لا حياة للعرب ، ولا قوة لهم بغير الاسلام .. هذا أمر مبدئى أومن به تماما . وقد كنت فى هيئة الأمم المتحدة (مندوبا لسوريا) منسجما تماما مع وفد باكستان وغيره من الوفود الاسلامية ، وكان الباكستانيون يدافعون عن قضايانا نحن العرب بأشد من الروح التى يدافعهون بها عن قضاياهم . إنهم يحبون العرب حبا عظيما بل يقدسونهم تقديسا . إن العالم الاسلامى فيه رصيد هائل من القوة المادية والمعنوية لنا نحن العرب . ومن الخطأ الفادح أن نترك هذا الرصيد يتبّدد .

وقد علّق عميد كلية الشيعة فى دمشق فى ذلك الحين الأستاذ محمد المبارك على حماس فارس الخورى للشريعة بقوله : من العجيب أن يستهين أبناء الاسلام بأمر الاسلام ، ويعملون على إبعاده عن الحياة العملية ، فى حين يقف أعظم مسيحى معاصر فى الشرق العربى ويجاهر بضرورة الأخذ بالاسلام والعمل بشريعته .

يقول فارس الخورى : « تتميز الشريعة الاسلامية عن أى شريعة أو قانون بتقوى الله ، حتى فى الحروب والغزوات ، كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص يقول : « أبعد جنودك عن منازل أهل الصلح والذمة ، لايدخلها أحد من الجنود إلاّ من تثق بدينه ، ولا يرزأ (يؤذى) أحد منهم أهلها بشىء ، فإن لهم حرمة ، وإذا كنتم ابتليتم بالوفاء فانهم ابتلوا بالصبر ! » .. ويعلق

فارس الخورى على كتاب عمر بن الخطاب هذا بقوله : « تصور رئيس دولة منتصرة يحس بأن عدوه المغلوب مبتلى وصابر على الهزيمة ، فيأمر جنوده بألاّ يزيدوا من مرارة المهزومين بما يخدش حرمة بيوتهم ! » .

ويقول الخورى : « ومن مبادىء الاسلام الرفيعة عدم قتل النساء والأطفال حتى إذا تترس (احتمى) جنود العدو بهم ، وعدم قتل مابيد المسلمين من رهائن إذا نقض أصحابهم العهد وقتلوا رهائن المسلمين ، فالشريعة الاسلامية تقرر أن الوفاء مقابل الغدر خير من مقابلة الغدر بالغدر » .

وكان فارس الخورى يرى أن مسيحيى الشرق أخلص واحفظ للمسيحية من مسيحيى أوربا . وكان يرى أن المتدين سواء كان مسلما أو مسيحيا هو مفتاح الشخصية العربية . ولم يقل (كما قال الموارنة فى لبنان) ان نصارى سوريا هم كذا فى المائة فلابد لهم من كذا منصب فى الدولة . فقد كان يعلم أن مثل هذا القول يفتح باب الفتنة الطائفية . ولقد حصل برضى المسلمين على منصب رئاسة الوزارة ثلاث مرات ، ورشحوه لرئاسة الجمهورية فأبى ... رحمه الله[1] .

تقرير للأستاذ منير شفيق[2] :

يقول المفكر الفلسطينى المعاصر الأستاذ منير شفيق : « كان الاستنتاج السريع السطحى يقول ان كل حديث عن الاسلام ، أو التاريخ العربى الاسلامى ، يستبعد المسيحيين العرب بالضرورة ، ويفترض أن الأمر لايعنيهم ، إن لم يفترض أنه موجه ضدهم . وسادت أفكار لاترى انخراطهم فى الحياة العامة ممكنا إلاّ فى ظل العلمنة والديموقراطية الغربية . بل جرى تقليد خلال المائة سنة الماضية يحصر الخيار أمامهم فيما بين عددمن أنظمة الحكم ماعدا نظام الحكم فى الاسلام ، أى أصبح من المتداول أن يختار المسيحى العربى الرأسمالية ، أو الاشتراكية الديمقراطية ، أو الشيوعية ، أو رأسمالية الدولية . وقد اعتبر ذلك منطقيا ينسجم مع روح العصر وخياراته ، أما فى المقابل ، فكان من غير المنطقى أن يختار نظام الاسلام ..

---

(١) د. فهمى الشناوى ــ المرجع السابق .

(٢) من مقال للأستاذ منير شفيق فى جريدة « الشعب » المصرية عدد (٢) مايو ١٩٨٩ .

« لا يقول الدين المسيحي للنصارى أى نظام سياسى ــ اقتصادى ــ اجتماعى يختارون . فهو لم يطرح نظام حكم محدد . ولهذا فمن حقهم أن يختاروا هذا النظام أوذاك . ومادام الأمر كذلك ، فلماذا لايكون من حقهم ، أو من المنطقى ، أن يختاروا الاسلام لهم دارا ونظاما ؟ وذلك أسوة ببقية أنظمة الحكم الأخرى ــ لو افترضنا جدلا جواز وضعها كلها على قدم المساواة عند تحقيق الاختيار . المهم هنا ــ من جهة نقطة الانطلاق ــ اعتبار الاسلام على الأقل أحد الأنظمة المطروحة من بين خياراتهم الأخرى ، ومن ثم يُرفع الحاجز الذى يمنع المسيحى العربى المعاصر من أن يختار الاسلام له وللأمة نظاما إذا رغب فى ذلك ، وهو أمر لايتناقض مع استمراره مسيحيا مؤمنا » .

ويمضى الأستاذ شفيق موضحا « أن السبب الكامن وراء وضع ذلك الحاجز يرجع إلى مرحلة السيطرة الاستعمارية على البلاد العربية ، وهى المرحلة التى سيطرت فيها الثقافة الغربية . فهذا الحاجز من نسج تلك الثقافة . وقد قام على أساس إيهام المسيحى بأن الاسلام يعنى اضطهاده وإذلاله وإفقاده حق المواطنة . وبأن نموذج الغرب يحقق له المساواة ويمتعه بالحرية . أما من الجهة الأخرى فعندما يبلع المسيحى العربى هذا الطعم يصبح فى مواضع الشبهات فى نظر المسلم بسبب علاقته بالغرب ، وموقفه السلبى من الاسلام . كما امتدت أيدى مدارس التغريب إلى إيهام المسلم المثقف أن الاسلام يعنى التأخر والتخلف ، وذلك ليكون للغرب هنا أيضا فئات متغربة فقدت أصولها وجذورها .

ولقد أراد الاستعمار من وراء إفقاد المسيحى العربى هويته الحضارية ونكران تاريخه ، حرمانه حتى من نسبه إلى العروبة . وبهذا لايعود قادرا على الاجابة « أنا عربى » أو « أنا أنتسب إلى أمة العرب » حين يسأل نفسه : من أكون ؟ لأنه يفقد ذلك الانتساب إذا كان حذرا من الاسلام ويخشى المسلمين .

ويقول الأستاذ شفيق : « ان أجداد المسيحيين العرب نظروا إلى تلك القضايا نظرة مختلفة عن نظرة الغرب . فقد عاشوا ثلاثة عشر قرنا كاملة فى ظل أنظمة إسلامية ــ بهذا القدر أو ذاك ، وطبقوا فى معاملاتهم الاقتصادية

وحياتهم المدنية والاجتماعية أحكام الشريعة الاسلامية مع مراعاة أحكام دينهم حيثما أقتضى الأمر . ولم يكن يخطر ببالهم أن ثمة نظاما آخر فى العالم يشكل بديلا أفضل . وذلك على الرغم من أن تلك القرون عرفت مستبدين جائرين الحقوا بهم فى بعض الفترات ، وأيضا بجماعة المسلمين ، ضيماً وظلما . ومن ثم فإن غربة بعض المسيحيين المعاصرين عن النظام الاسلامى مسألة حديثة . أو إنها نتاج « الحداثة » ، فقد رافقت الهيمنة الاستعمارية ، ونهلت من ثقافتها ، وحملت مقولاتها .

ومازلنا مع الأستاذ منير شفيق إذ يقول : « إذا بحث المسيحى العربى عن تاريخه وجده بمعظمه تاريخ العرب والمسلمين . فهل من الممكن أن تكون معركة « واترلو » معركته بدلا من معركة « اليرموك » ؟ .. وهل يمكن أن يعتبر جده ريكاردوس قلب الأسد بدلا من صلاح الدين ؟ ثم إذا بحث فى تراثه الحضارى فسيجده فى الحضارة العربية الاسلامية فلسفة وشعرا وأدبا وعلوما وتقاليد اجتماعية وفنونا شعبية وليس فى أى حضارة أخرى . وينسحب هذا أيضا على أنماط الانتاج التى عاشها ، وينطبق على القوانين التى تحكمت فى مسار تطوره التاريخى » .

« إن المسيحيين العرب إذا انتزعوا من الحضارة الاسلاميةوالتاريخ الاسلامى يصبحون بلا حضارة ولا تاريخ . أى يصبحون بلا مجرى أو مسار ، أى بلا مستقبل أيضا . وهذا ماأراده الغرب لهم . وهو أسوأ مايمكن أن يحل بمجموعة بشرية من اضطهاد ونكال ، وتدمير ، وذلك حين تُقتلع من جذورها ، وتُقطع عن مسار تاريخها ، فتصبح خشبا مسندة لا أشجارا عميقة الجذور طيبة الثمر يانعة الاخضرار .

على أن هذا الاقتلاع ليس إلا عملية قسرية فرضها الاستعمار فرضا ضد الواقع الموضوعى للمسيحيين وعلاقتهم بالاسلام والمسلمين . إن جمهور المسيحيين العرب جزء من الأمة العربية الاسلامية ، وان تاريخها تاريخهم ، ومعاركهامعاركهم ، وانتصاراتها انتصاراتهم ، وهزائمها هزائمهم ، وثقافتها ثقافتهم ، ومستقبلها مستقبلهم .. وإذا افترقوا عن مواطنيهم المسلمين ففى العقيدة ومكان الصلاة فقط .. بل ان ذلك الفرق هو جزء من الحضارة العربية

الإسلامية .. فهى حضارة تعددية ، فالاسلام حتى من الزاوية الدينية أقر هذه التعددية ، وشرع لها نظاما وأصولا ..

إن وقوف النصرانى العربى على الأرض نفسها التى يقف عليها المسلم العربى هو الطريق إلى إقامة علاقات سليمة وعادلة بينهما ، وذلك بدلا من المحافظة على قشرة واهية من المجاملات الشكلية وعبارات الود السطحية ، بينما ينخر السوس الغربى فى الأعماق ..

ثم يقول الأستاذ منير شفيق : « أما من الجهة المقابلة ، فهناك كلام آخر يمكن أن يقوله النصارى العرب والشرقيون عموما حول مسيحية الغرب نفسه . بل لعل أمامهم مهمة كبرى حتى بالنسبة إلى المسيحية ، وهى تخليصها من التشويه الغربى الذى لحق بها . فالغرب عندما تبناها لم يتشكل على صورتها الأساسيّة ، وإنما أخرجها على صورته وشكله ومثاله . ولهذا لاتستطيع مسيحية البلاد العربية أن تجد خيوطها موصولة مع تلك المسيحية التى طوعت فى الغرب لتخدم نظام العبودية ، ثم نظام الأقطاع ، ثم نظام الرأسمالية .. وواكبت الحملات الصليبية ، ثم المجازر الجماعية التى ارتكبت بحق الهنود الحمر فى الأمريكتين ، وذهبت مع ا لمعمرين العنصريين إلى أفريقيا ، وصاحبت تجارة العبيد فى سوق الملايين إلى أمريكا (نصفهم على الأقل ماتوا فى الطريق) . ثم وصل الأمر إلى مباركة بعض الكنائس البروتستانتية الغربية لقيام دولة الاغتصاب الصهيونى فى فلسطين . فهذه ليست المسيحية التى انتقلت من ربوع فلسطين إلى الغرب ..

ثم ينهى الأستاذ منير شفيق مقاله الضافى بهذا النداء : « لقد أزفت ساعة التخلص من هيمنة الغرب على العقول والنفوس ، وفضح تحامله على الاسلام ، وبهذا تتماسك أيدى المسلمين والمسيحيين تحت رايات الاسلام لتحرير البلاد سياسيا واقتصاديا ، بل ثقافيا وحضاريا ، وذلك من أجل إعادة الوحدة الصحيحة ، وصياغة واقع البلاد على صورة تجعله استمرارا منطقيا ومشروعا لتاريخ الأمة وحضارتها .. لا صورة ممسوخة للغرب ، تابعة له » .

إنتهى ما اقتبسناه من مقال الأستاذ منير شفيق .

وفى حديث المفكرين الاسلاميين المعاصرين عن « المشروع الحضارى الاسلامى » يسوقون الكثير من الأدلة التاريخية والعقلية على أن « مشروعهم » لايتعارض قط معماابتكره العقل الشرى والتجربة الانسانيةمن صور لنظم الحكم الحديث ، وهو (أى الاسلام) لايتناقض أبدا مع « الديموقراطية » ، فقد سبق أن طبقها المسلمون بأوسع معانيها فى صدر الاسلام وفى فترات أخرى من تاريخه ، وإن كان ذلك باسم الشورى ، والمعول هنا على المضمون لا على الاسم . وهم يؤكدون أن الشورى فى الاسلام ملزمة للحاكم ويدللون على هذا بكثير من وقائع التاريخ .

ويقول الاسلاميون ان فكرة « الشورى » هى جوهر الديمقراطية ومحورها . وحسب السلف أنهم وضعوا قواعد تكفل اختيار الأمة لحاكمها الذى ترتضيه وتتوسم فيه الكفاءة لهذا المنصب الخطير . ومن هذه القواعد وضع شروط حصيفة لمن يرشح للمنصب ، وقد سبق أن اشرنا إليها ، ومنها أن يقوم بترشيح اسم الخليفة أو أمير المؤمنين النخبةمن أهل السياسة والعلم والنفوذ ، وهى جماعة أهل الحل والعقد ، ثم لايكون هذا الترشيح شرعيا ونافذا إلاّ بقبول الناس كافة له بطريق المبايعة » .

وفى هذا يقول الأستاذ جلال كشك « وحسب السلف الصالح أنهم أقروا مبدأ البيعة ، أى جعل الشرعية لاتكتمل إلاّ بموافقة الأمة ، فالحكم لا يغتصب ، ولا يورث بالدم الأزرق ، ولا ينتزعه قائد منتصر ، وإنما القيادة السياسية (أهل الحل والعقد) ترشح وتختار ، ثم تعرض الأمر على الأمة أو على الجماهير معترفة بحقها فى الرفض أو حتى الخلع ، وكله حدث .. فقد قتلت الجماهير أحد الخلفاء (عثمان) ، ورفضت الجماهير وبعض أهل الحل والعقد خليفة آخر .. ورفض الحسين خلافة يزيد .. إلخ . ورأى الرّافضون أن من حقهم بل وواجبهم الاسلامى مقاتلة الخليفة أو الأمير المرفوض حتى يخلعوه[1] .

---

(١) محمد جلال كشك ــ بحث فى جريدة الشعب المصرية عدد ٢٣ / ٦ / ١٩٩٢ .

وفى الندوة التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت فى يونيو ١٩٩٢ ذكر الأستاذ فهمى هويدى أن الأستاذ عباس محمود العقاد عندما أصدر كتابه « الديموقراطية فى الاسلام » فى بداية الخمسينات ، قرر فى مستهله أن الاسلام هو الذى أنشأ الديموقراطية لأول مرة فى تاريخ العالم .. كما أنه فى هذا العام (١٩٩٢) أصدر الشيخ يوسف القرضاوى فتوى مع الديموقراطية ، وأخرى مع تعدد الأحزاب فى الدولة الاسلامية شريطة الا تحل الديموقراطية حراما ، أو تحرم حلالا[١] .

والواقع أن الاسلام لم يكن رائدا فى الحكم « الديموقراطى » وحسب ، وإنما بشر منذ خمسة عشر قرنا بالأفكار الحديثة التى تزهو بها الحضارة الغربية الآن ، فى ميادين الحرب ، وحقوق المدنيين فى الأراضى المحتلة ، ومثال ذلك :

- فى حالة الحرب لا يناجز المسلمون خصومهم إلاّ بعد إعلامهم بفسخ الهدنة (أو المعاهدة) ، ومضى وقت كاف ليُعلم أمير الخصم رعاياه فى أطراف البلاد ، حتى لا يؤخذوا على غرة .
- كانت أوامر رئيس الدولة الاسلامية لقائد جيش المسلمين صريحة فى عدم قتل الشيوخ (المسنين) أو النساء أو الأطفال ولو كانوا فى صفوف العدو المحارب . وعدم قطع الشجر أو إتلاف الزروع . وعدم إزعاج رجال الدين غير المسلمين الذين يتعبدون فى معابدهم وصوامعهم .

أوصى الخليفة الأول أبو بكر الصديق قائده أسامة بن زيد فى فتح الشام قائلا له ولجنوده : « أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا (بمن تقتلون من جنود العدو) ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة . ولا تقطعوا نخلة ، ولا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة إلاّ لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام

(١) فهمى هويدى ــ مقال فى جريدة الشعب المصرية عدد ٢٣ / ٦ / ١٩٩٢ .

قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

كان هذا فى أخريات العصر القديم ، وبدايات العصور الوسطى ، حين كانت جيوش الفرس والروم وغيرهم من الأمم لاتعرف فى غزوها مبدأ ولا إنسانية ، فالمهزومون لديها عبيد أذلاء ، دمهم ومالهم وعرضهم مباح للغازى الذى يرقص جنوده بنشوة النصر والخمر على أشلاء عدوهم .

حق غير المسلمين فى الدعوة إلى عقيدتهم :

فى الدولة الاسلامية لايقتصر حق غير المسلمين على وجوب رعاية كنائسهم ومعابدهم ، وحرية ممارستهم لشعائرهم الدينية . وإنما ذهب المفكرون الاسلاميون المحدثون إلى أبعد من هذا بكثير عندما تحدثوا عن حق غير المسلمين فى دعوة غيرهم إلى عقيدتهم هم ، تماما كحق المسلمين فى دعوة غيرهم إلى الدين الاسلامى .

يقول الدكتور اسماعيل الفاروقى أستاذ علم الأديان المقارن بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة : « لا جدال فى أن غير المسلم له أن يعبر عن رأيه فى الإطار القانونى الذى يخضع له الجميع ، وفى الحدود التى لاتجرح مشاعر الأغلبية التى احترمت ــ ابتداء ــ حق الأقلية فى أن تعبر عن رأيها .. والمسلم ملزم بمقتضى إيمانه ، وبمقتضى طبيعة دعوته المنطقية المتعلقة بالقيم أن يقدم الاسلام للذمى فى إطار « الحكمة والموعظة الحسنة » بالتعبير القرآنى .

وإذاا لم يقتنع غير المسلم بالحقيقة التى قدمها الاسلام ، فإنه يظل صاحب حق فى درجة غير منتقصة من الاحترام . ويجب أن نتذكر أنه عندما سمع مسيحيو نجران دعوة النبى ﷺ ذاته ، واهتدى بعضهم ولم يهتد البعض ، فإنه عليه الصلاة والسلام استمر فى معاملتهم بنفس الأسلوب من كرم الضيافة .. ، واعادهم إلى ديارهم فى حراسة وصحبة شخص موثوق به ليقدم لهم العون فى شئونهم الخاصة . إن الضمير الحر للانسان يمنحه كرامة منقطعة النظير ، وقد عرف جميع أنبياء الله كيفية احترامها[1] .

---

(١) د. اسماعيل الفاروق ــ المرجع السابق .

وقبل ذلك أعلن هذا الرأى عالم الهند الكبير الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى رسالته حول حقوق أهل الذمة التى كتبها فى عام ١٩٤٨ لتسترشد بها لجنة وضع دستور جمهورية باكستان حيث قال : « سيكون لغير المسلمين فى الدولة الاسلامية من حرية الخطابة والكتابة ، والرأى والتفكير ، والاجتماع ، ماهو للمسلمين سواء بسواء . وسيكون عليهم من القيود والالتزامات فى هذا الباب ماعلى المسلمين أنفسهم . فسيجوز لهم أن ينتقدوا بحرية الحكومة وعمالها ، وحتى رئيس الحكومة نفسه ، ضمن حدود القانون .

وستكون لهم (أى لغير المسلمين) الحرية الكاملة فى مدح نحلهم . ولن تعترض الحكومة على انتقال أحد من غير المسلمين من نحلة غير إسلامية إلى أخرى . ولكنه لن يكون لمسلم أن يستبدل بدينه نحلة أخرى ، مادام فى حدود الدولة الاسلامية . وإن ارتد فسيقع وبال ارتداده على نفسه ..

ولن يكره غير المسلمين فى الدولة الاسلامية على عقيدة أو عمل يخالف ضميرهم . وسيكون لهم أن يأتوا كل مايوافق ضميرهم من الأعمال ، مادام لايصطدم بقانون الدولة[1] .

وحدة الأديان السماوية ، ودعوة إلى التلاق :

فى كتابه القيم « مواطنون لا ذميون » أورد الأستاذ فهمى هويدى العديد من النصوص الدينية التى تثبت وحدة الأديان السماوية ، ووحدة البشر فى نظر الاسلام ، وتدعو إلى بناء حياة مفعمة بالمودة والرحمة :

﴿ يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ (الحجرات : ١٣) .

﴿ يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ (النساء : ١) .

« أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من

---

(١) أبو الأعلى المودوى — نظرية الاسلام وهديه ص ٣٦١ .

تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلاّ بالتقوى . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .. » (من خطبة الرسول فى حجة الوداع) .

ونلاحظ فى تلك النصوص أن خطاب الله سبحانه وتعالى ، وخطاب رسوله محمد ﷺ لم يُوجه للمسلمين فقط ، وإنما هو موجه للناس كافة .

وقد كان من دعائه عليه الصلاة والسلام فى صلاة آخر الليل : اللهم إنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلاّ أنت ، وان العباد كلهم اخوة — (أبو داود) .

ثم يورد الأستاذ فهمى هويدى آيتين قرآنيتين توضحان الحكم الإلهى فى شأن أصحاب الديانات الذين يؤمنون بالله ، ويأتون الأعمال الصالحة :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ (البقرة : ٦٢) .

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (المائدة — ٦٩) .

ويقول الأستاذ هويدى : « هنا تفتح الآيات باب التلاقى بين المسلمين وغيرهم ، معلنة ان المسلمين مؤمنون بكل الأنبياء والرسل ، وان جوهر الرسالات السماوية واحد فى غير تعارض أو تنافر » .

ومن حسن الطالع أن آباء الكنيسة الكاثوليكية استجابوا الآن لدعوة التلاقى العظيم بين المسيحية والاسلام ، وأقروّا بما سبق أن قررته الآيتان القرآنيتان . ففى خطاب ألقاه البابا « بول الثانى » أمام جمهور من الشباب المسلم فى المغرب فى ٢٠ / ٨ / ١٩٨٥ يقول(١) : إن الانسان كائن روحى ، ونحن المؤمنين نعلم أننا لانعيش فى عالم مغلق . إننا نؤمن بالله ، ونحن نطلب مرضاة الله ، والكنيسة تنظر باحترام إلى أعمالكم الدينية ، وتعترف بقيمتها ،

(١) من بحث للأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحمن فى جريدة الشعب المصرية عدد ١٩٨٨/١٢/٦ .

وبثراء تقاليدكم الروحية . وإننى أعتقد أننا المسيحيين والمسلمين سوف نعترف فى سرور بالقيم الدينية المشتركة بيننا ، وسوف نتوجه بالشكر لله على هذه النعمة .

« نحن وأنتم نؤمن بالله العادل الرحيم ، عدلا كاملا ورحمة تامة . ونؤمن بأهمية الصلاة والصيام والزكاة والتوبة والعفو . ونؤمن بأن الله ، يوم القيامة ، سيكون رحيما بكم ، وسيكون قاضيا رحيما بنا ، ونثق أن الله تعالى سيكون راضياعنا بعد البعث والنشور ، ونعلم أننا جميعا سنكون راضين عنه . إن الأمانة تقتضينا أن نعترف باختلافات بيننا وأن نحترمها . ولقد اعتدنا فى الماضى أن يسيىء كل طرف منا فهم الطرف الآخر . ولقد واجه بعضنا البعض الآخر ، واستهلكتنا المجادلات والحروب . وأحسب أن الله تعالى يحثنا الآن على نبذ عاداتنا تلك القديمة . إن علينا أن يحترم بعضنا البعض ، وأن يحث بعضنا بعضا على عمل الخيرات على الطريق الإلهى المستقيم » .

ويعلق الدكتور أحمد عبد الرحمن على هذا الخطاب قائلاً : « وهكذا نسخ البابا بول الثانى ، ومن قبله البابا بولس السادس ، اكواما من الأحكام الخاطئة ، والافتراءات الفاضحة ، والتقولات الحاقدة ، ضد الاسلام والمسلمين . فلم يعد المسلمون وثنيين ، يعبدون آلهة عديدة ، ولم يعد المسلمون يعبدون محمدا ، بل هم موحدون يعبدون الواحد الأحد . ويشهد رئيس الكنيسة الكاثوليكية بقيمة العبادات الاسلامية ، ويعترف بثراء تقاليدهم الروحية ، ويطالب اتباعه بتوثيق العلاقات معهم ، لحماية القيم الخلقية ، ومواجهة الفراغ الذى أحدثته الفلسفة المادية الالحادية » ..

ويشفع الدكتور أحمد عبد الرحمن خطاب الباب « بول الثانى » بما جاء فى دستور الكنيسة ذاتها وهذا نصه : « إن خطة الخلاص تشمل كل أولئك الذين يؤمنون بالخالق ، ومن بينهم — أولا — المسلمون ، الذين يؤمنون بإبراهيم عليه السلام ، ويعبدون الله الواحد الرحيم الذى سيقضى فى أمر الناس يوم الدين » . ثم يقول : « ويتأكد هذا المعنى الجديد بتفصيل أوسع فى إعلان الكنيسة الذى جاء نصه كما يلى : « وأن الكنيسة تنظر باحترام إلى المسلمين أيضا بوصفهم يعبدون الله الواحد ، الحى القيوم ، الرحيم ، علام الغيوب ،

خالق السماوات والأرض ، الأحد الذى كلم الناس . وهم (المسلمون) يحاولون بكل إخلاص إتباع أوامره تعالى مقتدين بإبراهيم بوصفه مثلهم الأعلى ، وهو النبى الذى تشير إليه العقيدة الاسلامية فى رضا وإرادة وترحاب . وهم يوقرون المسيح — لا كإله — بل كنبى ، وهم يبجلون أمه مريم .. ، وهم يترقبون يوم البعث .. ويقدورن الحياة الأخلاقية ، ويعبدون الله — أساسا — بالصلاة والزكاة والصيام » .

وفى مقال آخر بعنوان « الكنيسة والمصير العربى » يقول الدكتور أحمد عبد الرحمن ان الاسلاميين يتمنون أن يقتنع الأقباط بأن المجتمع الاسلامى ، والحكم الاسلامى ، والدولة المسلمة ، هى الضمانات الحقيقة لازدهار الايمان المسيحى ، وليس العلمانية المعادية للأديان .

« وللتذكير فقط أقول : إن الاسلام يرفض أن يتنصل المسيحى (الذى يعيش فى المجتمع المسلم » من عقائد المسيحية أو آدابها أو شرائعها الانجيلية ، والله تعالى يقول فى قرآنه : ﴿ **وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه** ﴾ ، ولذلك يجب أن يحترم القبطى دينه وأن يعمل به .. ونحن نحزن أشد الحزن حين نرى قبطيا أو مسلما يعتنق الفلسفة المادية الملحدة ، ويروج لها فى كتبه أو مقالاته ، ونأسف كثيرا حين نرى بعض القيادات القبطية تسأل عن أفضل الكتاب ، فتذكر بعض العلمانيين المشهورين !

« ولهذا أسأل نفسى دائما — الحديث مازال للدكتور أحمد عبد الرحمن : ماذا يفضل الأقباط ياترى : الاسلام أم العلمانية ؟ الاسلام الذى يرفض تنصل المسيحى من دينه ، أم العلمانية المادية الملحدة التى قوّضت الايمان المسيحى فى أوربا الغربية ، وقاتلته قتالا جبانا فى أوربا الشرقية ؟[1] .

□ ★ □

---

(١) من مقال فى جريدة الشعب المصرية فى ١ / ١٠ / ١٩٩١ .

خاتمـــة

عن الفتنة الطائفية

خاتمة : عن الفتنة الطائفية

لا أظن أن من يقرأ هذا الكتاب يصبح فى حاجة إلى حديث مستفيض عن أحداث الفتنة الطائفية التى أبتليت بهامصر فى السنوات الأخيرة ، ولكن — مع هذا — لاضمير من تناول هذا الموضوع فى عجالة نعرض فيها رأينا عن أهم أسباب تلك الفتنة .

لقد حظيت تلك الأحداث وما صاحبها من مظاهر تطرف بتغطية إعلامية واسعة ، وتناولها بالبحث والتحليل عدد كبير من الكتاب ، بعضهم اهتدى إلي الحقيقة أو اقترب منها ، وكشف عن بعض جذور المشكلة ، والبعض الآخر ، قادته فى البحث أهواؤه المذهبية أو السياسية ، فلم يقدم علاجا نافعا بل ربما زاد الفتنة اشتعالا .

وهى فتنة ولا شك ، طالما هنالك من يعملون بسوء النية على إبقاء جمراتها حية . على أن كثيرين أجمعوا على أن أسبابها ترجع فى المقام الأول إلى الأزمة الاقتصادية السائدة . فذكروا شيوع البطالة فى جماهير واسعة من الشباب المتعلم ، والفقر الناشب مخالبه فى ربوع الصعيد ، والمناطق الفقيرة العشوائية التى تضخمت على تخوم المدن الكبرى وحرمت من الخدمات والمرافق الأساسية ، ثم ماتولد عن كل ذلك من يأس وإحباط ونزعات عدوانية .

وقد نسلم بصحة تلك الأسباب ، ولكننا نضع فى مقدمتها جميعا ، وعلى رأسها سببا آخر نراه الأهم ، والأجدر بالعلاج السريع ، إنه الجهل . فلو أن لدينا تربية دينية صحيحة بحيث يعرف المسلم والمسيحى حقائق دينه وما يفيض به من رحمة وسماحة ، لما وقف أى منهما فى وجه الآخر ، يعاديه ويقاتله .

ولو أن لدينا تعليما جيدا ، يستوعب أبناءنا جميعا ، ويعلمهم تاريخ

وطنهم ، ويكشف لهم عن أمجاد آبائهم العظام ، ومواقفهم الوطنية .. لما فكروا قط فى التنابذ والعدوان على الأرواح والأموال وحرمات بيوت الله ، كنائس ومساجد .

فى رأيى أن الفقر ليس هو العنصر الحيوى فى الفتنة الطائفية ، بل الجهل وغياب الحس الحضارى . أذكر مما نشرته الصحف منذ حوالى عامين ، عن أحداث عنف وقعت فى حىّ امبابة بين مسلمين ومسيحيين ، اعتدى فيها على حرمة مسجد ، وعلى المصلّين فيه ، وأشعلت النار فى كنيسة .. أذكر أن سببها المباشر نزاع نشب بين عائلتين نازحتين من الصعيد ، ليستا فقيرتين ، بل تملكان الكثير من المال ، فأفرادهما من تجار الدواجن وأصحاب المقاهى الرائجة .

قالت الصحف عن تلك الأحداث ان « معلمة » من أسرة مسيحية صعيدية ، أرادت أن تكيد لعائلة مسلمة من التجار أيضا ، اعتدى أحد أبنائها على ابن « المعلمة » المسيحية ، فلم تجد وسيلة للكيد والانتقام إلاّ أن تذيع من شرفة منزلها ، وبصوت زاعق ، قداسا مسيحيا من جهاز تسجيل وضعته فى الشرفة كى يشوش على مكبر الصوت الذى يذيع شعائر الصلاة من مسجد مجاور . وسرعان مااشتعلت الأحداث بعد أن قفزت فيها جماهير المتحمسين المتعصبين ، وأكثرهم أميون ، وبعضهم من أنصاف المتعلمين .

إن ثراء الأسرتين هنا ، المسيحية والمسلمة ، لم يمنعهما من الطيش والاندفاع المجنون ، بل ربما دفعهما إلى ذلك دفعا ، فالثراء مع الجهل يُكسب صاحبه شعورا بالاستعلاء ، ويغريه بالبغى والتطاول .

أعلم تماما أن الجماهير التى قفزت إلى تلك الواقعة فأشعلت أوراها ، انطلقت من دوافع شتى : البؤس الحاقد ، والضيق بالحياة الرديئة ، وتوتر الأعصاب الناجم عن الازدحام الرهيب والضوضاء المجنونة التى لا ضابط لها .. إلخ . ولكن يبقى أن الدافع الأهم والشرارة الأولى انطلقا من جهل مطبق ، جهل بالدين ، وجهل بالتاريخ ، وجهل عام .

وواضح أن مكبر الصوت — فى هذه الحادثة وغيرها — له دور غير منكور . وليسمح لى القارىء هنا بشىء من الاستطراد الذى أراه مفيدا . فالاستخدام الغشيم لمكبرات الصوت فى المناسبات الدينية ذو أثر سّيىء فى

المسألة الطائفية ، حتى ولو لم يظهر هذا الأثر على الألسنة ، وظل مكتوما داخل الصدور .

ولو أننا مجتمع متحضر ، على قدر كاف من التعليم ، لأدركنا أن العبادة يجب أن تؤدى فى خشوع وهدوء ، دونما حاجة إلى مهرجانات يومية . والقاعدة الأصولية فى الفقه الإسلامى تمنع الضرر . فاصوات الشعائر لا ينبغى أن تتعدى جدران الكنيسة أو المسجد ، فقد يوجد مرضى فى البيوت المجاورة فى مسيس الحاجة إلى الهدوء ، وهناك طلبة عاكفون على المذاكرة لاينبغى تشتيت انتباههم . بل هناك عابدون يريدون أن يتهجدوا فى جوف الليل ، ومكبر الصوت المنبعث من المسجد ! يُزعج خلوتهم سواء أثناء صلاتهم أو تلاوتهم القرآن بتدبر !

ماذنب كل هؤلاء وغيرهم عندما يفتح عليهم خادم المسجد مكبر الصوت قبل صلاة الفجر بساعة ، يذيع عليهم — دون طلب منهم ، ودون مبرر شرعى — مايُسمى بشعائر صلاة الفجر التى ينقلها المذياع من مسجد سيدنا الحسين أو السيدة زينب كل ليلة على مدار العام ؟ ثم هل هى شعائر حقا ؟ هل الإنشاد الدينى الذى يذاع قبل أذان الفجر شعيرة إسلامية ؟ إن الشعيرة الوحيدة التى يجب إذاعتها هى الأذان الشرعى الذى لاتتعدى كلماته خمس عشرة كلمة . وكل مازاد على هذا هو بدعة فى الدين بإجماع الفقهاء قدامى ومحدثين .

يقول فضيلة الشيخ سيد سابق فى كتابه المشهور « فقه السنة » : « الأذان عبادة ، ومدار الأمر فى العبادات على الاتباع ، فلا يجوز لنا أن نزيد شيئا فى ديننا أو ننقص منه . وفى الحديث الصحيح : « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو ردّ » أى باطل .

وينقل عن فقهاء الحنابلة قولهم فى مسألة « التسبيح قبل الفجر » : « وما سوى التأذين قبل الفجر من التسبيح والنشيد ورفع الصوت بالدعاء ونحو ذلك فى المآذن ، فليس بمسنون ، وما من أحد من العلماء قال انه يستحب ، بل هو من جملة البدع المكروهة لأنه لم يكن فى عهد الرسول ﷺ ، ولا فى عهد أصحابه ، وليس له أصل فيما كان على عهدهم يُرد إليه .

ويقول الشيخ سيد سابق « ان الجهر بالصلاة والسلام على الرسول ﷺ عقب الأذان غير مشروع ، بل هو محدث مكروه » . واستند فى ذلك إلى قول ابن حجر فى الفتاوى الكبرى . ويقول : سُئل الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية عن الصلاة والسلام على النبى عقب الأذان فأجاب : « أما الأذان فقد جاء فى (الخانية) أنه ليس لغير المكتوبات ، وإنه خمس عشرة كلمة وآخره عندنا لا إله إلا الله ، وما يذكر بعده أو قبله كله من المستحدثات المبتدعة ، ابتدعت للتلحين لا لشيء آخر ، ولا يقول أحد بجواز هذا التلحين ، ولا عبرة بقول من قال : إن شيئا من ذلك بدعة حسنة ، لأن كل بدعة فى العبادات على هذا النحو فهى سيئة ، ومن ادعى أن ذلك ليس فيه تلحين فهو كاذب » .

وينقل أيضا عن عبد الرحمن بن الجوزى قوله : « وقد رأيت من يقوم بليل كثير (أى بجزء كبير من الليل) على المنارة فيعظ ، ويقرأ سورة من القرآن بصوت مرتفع ، فيمنع الناس من نومهم ، ويخلط على المتهجدين قراءتهم ، وكل ذلك من المنكرات » ، وقال الحافظ فى الفتح : « ماأحدث من التسبيح قبل الصبح وقبل الجمعة ، ومن الصلاة على النبى ﷺ ، ليس من الأذان لا لغة ولا شرعا »[1] .

والخلاصة أن الفقهاء أفتوا بأن كل مايرفع به المؤذن صوته زيادة على الأذان الشرعى « باطل » و « غير مشروع » ومن « المنكرات » و « المستحدثات المبتدعة » ، وعللوا حكمهم بأنه لا أصل لتلك المنكرات فى الدين ، وإنها تزعج النائمين والمرضى والمتهجدين . وقد صدرت تلك الفتاوى فى عصور لم يكن فيها مكبر الصوت قد اخترع بعد ، وإنما كان مجرد رفع المؤذن صوته بتلك « المنكرات » مدعاة للازعاج واستنكار الفقهاء ، فما بالنا الآن وهى تذاع بمكبرات صوت من كل حدب وصوب ؟!

حقا ان الدين الاسلامى دين حضارة وذوق ، وإنما شوه صورته الجهال منا ، وأتاحوا الفرصة لأعدائه فرموه بالتخلف .

---

(١) السيد سابق ــ فقه السنة المجلد الأول ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

منذ سنين قليلة خطر للمفكر الفرنسى الشهير روجيه جارودى ـــ عقب دخوله فى الاسلام ـــ أن يقضى شهر رمضان فى القاهرة ، واختار لاقامته حيا إسلاميا عريقا هو حىّ الحسين ، كى يملأ جوانحه ـــ إلى جانب التعبد ـــ بعبق الاسلام . وأراد أن ينام فى أول الليل كى يستطيع النهوض فى منتصفه للتهجد كما تقضى السُّنة . ولكنه لم يستطع أن ينام ولا أن يتهجد ، بسبب غابة مكبرات الصوت المزروعة فى تلك المنطقة لإذاعة كل مايخطر ومالا يخطر على البال من أنشطة البشر : أفراح ، ومآتم ، وأغانى شعبية من سرادقات ، وموشحات ، وإعلانات مدوية عن بضائع ، وأخيرا « شعائر صلاة الفجر » قبل موعد الصلاة بأكثر من ساعة .

ولم يقو المفكر الفرنسى على تحمل هذا العناء ، وضاق بالقاهرة كلها ، فقطع أجازته بعد يومين عائدا إلى باريس ، حيث يستطيع أن يكمل صيام رمضان فى هدوء وسكينة ! وعند سفره قال قولة كبرى : « الحمد لله الذى قدّر لى أن أدخل فى الإسلام قبل أن أرى المسلمين ! » . أى عار يلحق بنا .. !!

تحدثت يوما فى هذا الأمر مع أحد مفتشى المساجد فروى لى هذه الحكاية التى وقعت له شخصيا ، قال : « كانت والدتى المسنة مريضة ، وتشكو آلاما مبرحة تمنعها من النوم ، فأعطيناها « مُسكّنا » ، وبدأت تستسلم للنوم ، وحمدنا الله ، ولكن لم يلبث « ميكروفون » قبل الفجر المنبعث من مسجد أمامنا مباشرة أن انطلق يدوى ، فهبت المريضة من مرقدها مذعورة . وتوجهتُ غاضبا إلى ذلك المسجد ، ولدهشتى لم أجد فيه أحداً من المصلين ، فقد كان الوقت مبكرا على موعد الصلاة ، وإنما وجدت خادم المسجد وقد وضع « المايك » أمام المذياع المفتوح ، واستلقى بجواره فى نوم عميق !

وبعد هذا الاستطراد ، نعود إلى حىّ امبابة . أجرت الدكتورة إقبال الأمير الأستاذة بالمعهد العالى للخدمة الاجتماعية ، والدكتورة نهى فهمى الأستاذة بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، دراسات ميدانية حديثة عن الأحوال الاجتماعية لسكان امبابة جاء فيها : تصل نسبة الأمية بين أهالى امبابة إلى ٤٦,٦ ٪ ، ونسبة من يقرأ ويكتب « بالعافية » ٢٢,٣ ٪ ، ونسبة التعليم

الأقل من المتوسط ١٦,٤ ٪ ، أى أن ٨٥,٣ ٪ من مجموع الأهالى مابين أمى ودون المتوسط .

وتشير تلك الدراسات إلى أن السكان يغرقون فى ١٥ مشكلة هى بالترتيب : طفح المجارى ، عدم النظافة ، كثرة الخرابات ، عجز المياه والكهرباء وانقطاعهما ، عدم الاهتمام بالخبز ، الضوضاء ، ضيق الشوارع وازدحامها ، عدم وجود جمعية استهلاكية ، ضيق المساكن ، تصدع المنازل لقدمها ، غلاء المعيشة ، عدم رصف الشوارع ، عدم وجود نادى للأطفال ، كثرة المقاهى ، ضآلة الخدمات الصحية ، مشكلات أخرى مصنفة . وقد لوحظ أن مشكلة الضوضاء جاء ترتيبها « الخامس » من خمس عشرة مشكلة كبرى .

وذكرت الاحصائيات التى حوتها تلك الدراسات أن ٥٦,٧ ٪ من أفراد العينة يسمعون أصوات الجيران وهم فى منازلهم ، وأن ٧٤,٤ ٪ من الأشخاص الذين يسمعون أصوات جيرانهم يتضايقون ويتضررون من ذلك . وهذا ناجم أولا عن عادة « الصوت العالى » ، ثم عن ضيق الحوارى وتلاصق المنازل .

واضح أن الحاجة أصبحت ملحة للاهتمام بالأحياء العشوائية التى لاتخلو منها مدينة على امتداد مصر ، ولن يكون هذا الاهتمام فعالا إلاّ فى إطار مشروع حضارى قومى شامل يعالج تلك المشكلات المتفاقمة ، على أن يكون على رأس أولوياته محو الأمية — كما فعلت دول كثيرة أقل منا شأنا وحضارة — ووضع برنامج إصلاحى تعليمى ، يكفل تعليما جيدا لكل أطفالنا ، ويقدم الدين الصحيح للأطفال والشباب ، ويذيب الجميع — مسلمين ومسيحيين — فى بوتقة القومية الواحدة ، ويؤهلهم للعمل المنتج ، ويعلمهم كيف يفكرون ، وكيف يسعدون بقيم السماء التى جاءت بها المسيحية والاسلام .

ولن يتوفر لنا تعليم جيد وفعال فى المجتمع دون معلم مؤهل ، يعرف تاريخ بلاده ، ويعرف دينه معرفة صحيحة ، يعى رسالته فى تربية جيل جديد ، وتتوفر له حرية المبادرة فى سبيل النهوض برسالته ، دون التقوقع فى اسار المنهج المدرسى .

نشرت الأهرام رسالة بعث بها الأستاذ الدكتور طاهر مرسى عطية وكيل

كلية التجارة ببورسعيد قال فيها : « كنا فى ذلك الوقت تلاميذ صغارا بالمرحلة الابتدائية فى مدرسة مكارم الأخلاق الاسلامية بشارع بين الجناين بالعباسية ، حين أتى إلينا الشيخ على قرنى أستاذ اللغة العربية والدين ، ليبلغنا أن إخواننا المسيحيين قد شرعوا فى بناء كنيسة كبرى ــ هى التى يطلق عليها اليوم الكاتدرائية المرقسية بشارع رمسيس ــ وانهم يجمعون من بينهم التبرعات لبناء هذه الكنيسة ، وان الكنيسة بيت من بيوت الله ، ومن يساهم فى بنائها منا كأنه يساهم فى بناء مسجد ، وان الله سبحانه وتعالى سيرد لنا هذه المساهمة حسنات وحسنات . فأخذنا نتسابق فى التبرع من مصروفنا الخاص والذى لم يكن يتعدى فى تلك الأيام بضعة قروش أسبوعيا .

« كان بعضنا يتبرع بالملاليم أو بنصف القرش (التعريفة) . ولما اكتمل لنا مبلغ رآه الشيخ على معقولا ، كوّن منا مجموعة ورتب لنا لقاء بصحبته مع الباب كيرلس السادس بابا الأقباط الراحل ، واستقبلنا الرجل الفاضل أفضل استقبال ، ويشهد الله أنه تأثر بلقائنا ، وبما قدمناه من تبرع صغير غاية التأثير . وعندما أخذنا نتجاذب معه أطراف الحديث ، سمعنا منه ماأثلج صدورنا ، قال لنا إن دينكم دين عظيم ، وأن أحد دلائل عظمته هو ما فعلناه نحن الصغار . وعندما لاحظ الباب ارتباكنا لعدم معرفتنا كيف نناديه ، وبماذا ندعوه عندما نخاطبه ، اقترح علينا أن نناديه « بالشيخ كيرلس » ، فضحك الشيخ على سرورا وطلب منا بدوره أن نناديه هو بـ « أبونا على » بدلا من الشيخ على .. وانتهت المقابلة وخرجنا فى غاية السعادة .

« إننى ــ الكلام مازال لصاحب الرسالة الدكتور طاهر مرسى ــ أهدى هذا الموقف لمن يشككون فى سماحة الاسلام وعظمته ، ولمن يتخيلون أنهم يخدمون دينهم بالاساءة إلى دين الآخرين »[1] .

أرأيت ــ عزيزى القارىء ــ أهمية المدرس المؤهل الواعى ؟ وهل غياب مثل هذا المدرس الآن عن معظم مدارسنا يمكن أن يفسر النكسة التى أصابت علاقتنا بإخواننا المسيحيين ؟

---

(١) جريدة الأهرام فى ١٠ / ٥ / ١٩٩١ .

وعندما و قعت أحداث مؤسفة بين أفراد من المسلمين والأقباط فى صعيد مصر فى عام ١٩٩٠ كتب الأستاذ فيليب جلاب يقول : « أزعم أننى كمواطن مصرى عربى أعرف الاسلام كما يعرفه كل مسلم مستنير ، وأزعم أنه يشكل مع الحضارة الاسلامية الجانب الأساسى من ثقافتنا بعد أن استوعب كل العناصر الايجابية من الحضارات غير الاسلامية التى ساهمت فى تشكيل وجداننا . ولذلك أزعم بضمير مستريح أن كل ماحدث ويحدث فى المنيا وأبو قرقاص وبنى مزار وغيرها من البؤر المشابهة لا علاقة له بالاسلام ولا يقوم به مسلمون[1] .

□ * □

(١) جريدة الأهالى المصرية ١٤ / ٣ / ١٩٩٠ .

فهرس الموضوعات

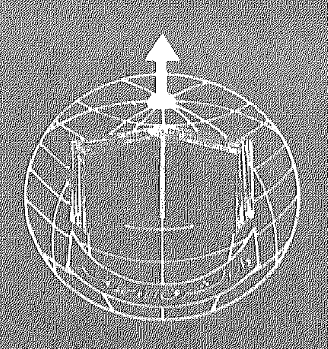
الموضوع	الصفحة

تابع فهرس الموضوعات

□ ★ □

رقـــم الإيـداع
١٩٩٣ / ٨٧١٥
الترقـيم الـدولى
I. S. B. N.
977 - 5087 - 29 - 2

طبع بمطابع البلاغ
٢ شارع حسين حجازى ـ الدواوين ـ القاهرة
ت : ٣٥٤٩٥١٥ ـ ٣٥٦٣٤١٦



لماذا هذا الكتاب

من خلال الظروف السياسية التى تعيشها مصر ، والتى تتصل بصفة خاصة بأبناء شعبها مسلمين وأقباطاً ، كنا نشعر ككل المواطنين بكثير من القلق إزاء ما طرأ على العلاقة بين أبناء هذا الشعب الواحد من مسلمين وأقباط ... ولقد تأكد لنا من خلال قراءة هذا الكتاب أن المشكلة كلها ترجع إلى أمرين :

١ ـ الجهل بحقيقة الأصل العربى الواحد الذى يجمع هذا الشعب كله ، كما تجمعه الديانات السماوية التى تخرج كلها من مشكاة واحدة .

٢ ـ فى الافتعال والتضخيم ودور الأصابع الأجنبية فى تلك الأزمة الطارئة على شعب مصر والغريبة عنه وعن طبيعته وتكوينه .

إزاء ذلك كله ... تأكد لنا أن هذا الكتاب يأتى فى وقته تماماً ، وليؤدّى دوراً كان يبحث فى إلحاح عمّن يقوم به .. وكان لابد أن نقدم لشعبنا المصرى هذا الجهد الذى بذله مؤلفه الواعى ...

المؤلف فى سطور :

- الأستاذ محمد المرشدى
- شغل العديد من المناصب السياسية
- وزير مفوّض إعلامى فى السّتينات
- ترجم العديد من الكتب ، كما سبقت له فى مجال التأليف جهود ملموسة .
- وأخيراً .. يكفينا أن نقدمه للقارىء من خلال هذا الكتاب

دار الشرق الأوسط للنشر
١٥٣ شارع الطيران ـ مدينة نصر ـ القاهرة
تليفون : ٢٦٠٥٧٠٧